من رسائل شيخ الإسلام
(٢)

الزهد والورع والعبادة

تأليف
شيخ الإسلام ابن تيمية

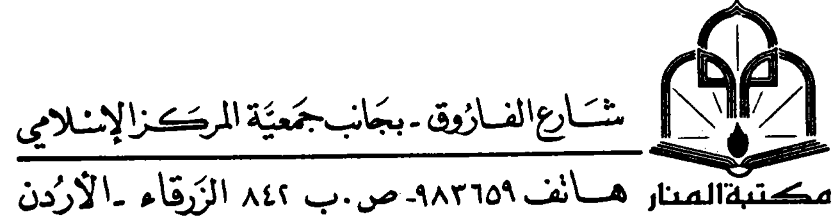
تحقيق
حماد سلامة

إشراف
الدكتور محمد عويضة



الزُّهْدُ وَالوَرَعُ وَالعِبَادَةُ

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م



المقـــدّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه الغر الميامين ومن تبعهم إلى يوم الدين، وبعد:

فلا شك أننا نعيش في عصر يكتظ بالكثير من المغريات والأهواء والفتن والشهوات وطرق الضلال والغي التي قد تنجذب لها بعض النفوس فتميـل عن الصراط المستقيم والنهج القويم الـذي أراده لها خـالقها عز وجل، وارتضاه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، لذا فإن النفس البشرية بحاجة ماسة لمن يحذرها من خطر مثل هذه الشهوات والأهواء، ويرشدها لطرق الزهد والورع المشروعة في الدنيا، وينبهها للعبادة المشروعة والتقوى وتزكية النفس والسمو بها وترك المحرمات وفعل المأمورات ويوصيها بما فيه صلاح الدين والدنيا، ولا شك أن شيخ الإسلام ابن تيمية قد تحدث في هذه الأمور وغيرها حديث العالم المتبحر الذي ينهل من معين الثقافة الإسلامية الواسعة الذي لا ينضب، وعلى هذا الأساس اخترنا بعض الفصول والرسائل التي تحدث فيها الإمام ابن تيمية عن الزهد والورع والعبادة ونحو ذلك في مجلد السلوك من مجموع الفتاوى وقمنا بخدمتها كما يلي:

١ ـ الترجمة المختصرة لابن تيمية.

٢ ـ تخريج الآيات القرآنية الكريمة.

٣ ـ تخريج الأحاديث الشريفة تخريجاً وسطاً فلا هو طويل ممل ولا قصير مخل.

٤ ـ الترجمة لبعض الأعلام الذين ورد ذكرهم.

٥ ـ شرح المفردات الغريبة.

٦ ـ وضع عناوين داخلية للموضوعات.

٧ ـ وضع فهارس للآيات والأحاديث والموضوعات.

ونسأل الله أن يكون عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يُنتفع به وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

حمّاد سلامة

ترجمة ابن تيمية

هو أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم الخضر النميري الحراني الدمشقي الحنبلي، أبو العباس تقي الدين ابن تيمية: الإمام شيخ الإسلام، ولد في حران سنة ٦٦١هـ وتحوَّل به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر. وطلب إلى مصر من أجل فتوى أفتى بها فقصدها فتحامل عليه جماعة من أهلها فسجن مدة ونُقل إلى الإسكندرية ثم أطلق سراحه، فسافر إلى دمشق سنة ٧١٢هـ واعتقل بها سنة ٧٢٠هـ وأطلق ثم أعيد، ومات معتقلاً بقلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ فخرجت دمشق كلها في جنازته. كان كثير البحث في فنون الحكمة داعية إصلاح في الدين، آية في التفسير والأصول، فصيح اللسان، قلمه ولسانه متقاربان، له مصنفات كثيرة وقد جمعها تلميذه ابن القيم في رسالة له طبعها الدكتور صلاح الدين المنجد، وقد تقدمت له ترجمة وافية في الرسالة التي نشرناها له بعنوان «التحفة العراقية في الأمراض القلبية»[1].

---

(١) [انظر ترجمته في البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٣٧، الشذرات ج ٦ ص ٨١، فوات الوفيات ج ١ ص ٧٤، طبقات الحفاظ ص ٥٢٠، والعبر للذهبي ج ٤ ص ٨٤، الأعلام ج ١ ص ١٤٤، وله ترجمة مستفيضة في المطولات].



الفَصْل الأوَّل

[الصراط المستقيم في الزهد والعبادة والورع]

قالَ الشيخ، رَحِمَهُ الله:

[أهمية لزوم السنة:]

فصل: في الصراط المستقيم: في «الزهد» و«العبادة» و«الورع» في ترك المحرمات والشهوات، و«الاقتصاد» في العبادة. وأن لزوم السنة هو يحفظ من شر النفس والشيطان بدون الطرق المبتدعة، فإن أصحابها لا بد أن يقعوا في الآصار والأغلال، وإن كانوا متأولين، فلا بد لهم من اتباع الهوى؛ ولهذا سمي أصحاب البدع أصحاب الأهواء؛ فإن طريق السنة علم وعدل وهدى؛ وفي البدعة جهل وظلم، وفيها اتباع الظن وما تهوى الأنفس.

[معنى الضلال والغي والرشد:]

و «الرسول» ما ضل وما غوى، و«الضلال» مقرون بالغي؛ فكل غاو ضال؛ والرشد ضد الغي والهدى ضد الضلال، وهو مجانبة طريق الفجار وأهل البدع، كما كان السلف ينهون عنهما. قال تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾[1].

---

(١) الآية ٥٩ من سورة مريم.

و «الغي» في الأصل: مصدر غوى يغوي غياً؛ كما يقال: لوى يلوي لياً. وهو ضد الرشد كما قال تعالى: ﴿وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً﴾[1].

و «الرشد» العمل الذي ينفع صاحبه، والغي العمل الذي يضر صاحبه، فعمل الخير رشد. وعمل الشر غي؛ ولهذا قالت الجن: ﴿وإنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً؟!﴾[2]، فقابلوا بين الشر وبين الرشد، وقال في آخر السورة: ﴿قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً﴾[3] ومنه «الرشيد» الذي يسلم إليه ماله. وهو الذي يصرف ماله فيما ينفع لا فيما يضر.

وقال الشيطان: ﴿ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾[4] وهو أن يأمرهم بالشر الذي يضرهم فيطيعونه كما قال تعالى: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾[5]، وقال: ﴿وبرزت الجحيم للغاوين﴾[6]، إلى أن قال: ﴿فكبكبوا[7] فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون﴾[8]، وقال: ﴿قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا﴾[9]،وقال: ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى﴾[10]

---

(١) الآية ١٤٦ من سورة الأعراف.
(٢) الآية ١٠ من سورة الجن.
(٣) الآية ٢١ من سورة الجن.
(٤) الآيتان ٣٩ ـ ٤٠ من سورة الحجر.
(٥) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم.
(٦) الآية ٩١ من سورة الشعراء.
(٧) كبكبوا: أي دهوروا وجمعوا ثم رمي بهم في هوَّة النار. [انظر لسان العرب، ج ١ ص ٦٩٧، طبعة دار صادر].
(٨) الآيتان ٩٤ ـ ٩٥ من سورة الشعراء.
(٩) الآية ٦٣ من سورة القصص.
(١٠) الآية ٢ من سورة النجم.

ثم إن «الغي» إذا كان اسماً لعمل الشر الذي يضر صاحبه فإن عاقبة العمل أيضاً تسمى غياً، كما إن عاقبة الخير تسمى رشداً، كما تسمى عاقبة الشر شراً، وعاقبة الخير خيراً، وعاقبة الحسنات حسنات، وعاقبة السيئات سيئات.

«فالحسنات والسيئات» في كتاب الله يراد بها أعمال الخير وأعمال الشر، كما يراد بها النعم والمصائب والجزاء من جنس العمل، فمن عمل خيراً وحسنات لقي خيراً وحسنات، ومن عمل شراً وسيئات لقي شراً وسيئات. كذلك من عمل غياً لقي غياً، وترك الصلاة واتباع الشهوات غي يلقى صاحبه غياً. فلهذا قال الزمخشري: كل شر عند العرب غي، وكل خير رشاد. كما قيل:

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً[1]

وقال الزجاج: جزاؤه غي؛ لقوله: ﴿يلق أثاماً﴾، أي مجازاة آثام. وفي الحديث المأثور: «إن غيا واد في جهنم تستعيذ منه أوديتها»[2]، وهذا تعبير عن ملاقاة الشر، وقال سبحانه: ﴿أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات﴾[3]، فإن الصلاة فيها إرادة وجه الله. كما قال تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾[4]: أي يصلون صلاة الفجر والعصر. والداعي يقصد ربه ويريده، فتكون القلوب في هذه الأشياء مريدة لربها محبة له.

---

(١) قائل البيت المرقش الأصغر. انظر المفضليات، للضبي، ص ٢٤٧.
(٢) رواه الطبري في تفسيره، ج ٩ ص ١٠٠.
(٣) الآية ٥٩ من سورة مريم.
(٤) الآية ٥٢ من سورة الأنعام.

[اتبــاع الشهــوات:]

و ﴿اتباع الشهوات﴾ هو اتباع ما تشتهيه النفس؛ فإن «الشهوات جمع شهوة، والشهوة هي في الأصل: مصدر، ويسمى المشتهى شهوة. تسمية للمفعول باسم المصدر. قال تعالى: ﴿ويـريـد الـذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عـظيماً﴾[1]، فجعـل التوبـة في مقابلة اتبـاع الشهوات، فإنه يريد أن يتوب علينا: أي فالله يحب لنا ذلك ويرضاه ويأمر به، ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات﴾ وهـم الغاوون ﴿أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ يعدل بكم عن الصراط المستقيم إلى اتباع الشهوات عدولاً عظيماً، فإن أصل «الميل» العدول، فلا بد منه للذين يتبعون الشهوات، كما قال صلى الله عليه وسلم: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»[2]. رواه أحمد وابن ماجه من حديث ثوبان.

فأخبر أنا لا نطيق الاستقامة أو ثوابها إذا استقمنا. وقال: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾[3]، فقوله: «كل الميل»، أي يريد نهاية الميل، يريد الزيغ عن الطريق، والعدول عن سواء الصراط إلى نهاية الشر؛ بل إذا بليت بذلك فتوسط، وعد إلى الطريق بالتوبة.

كما في الحديث عن النبـي صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمن كمثل

---

(١) الآية ٢٧ من سورة النساء.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٥ ص ٢٨٢؛ ومالك في الطهارة، باب جامع الوضوء، ج ١ ص ٣٤. ورواه ابن ماجه في كتاب الطهارة، باب المحافظة على الوضوء، ج ١ ص ١٠١/١٠٢. قـال في الزوائد: رجال إسناده ثقات أثبات. إلا أن فيه انقطاعاً بين سالم وثوبان. ولكن أخرجه الدارمي وابن حبان في صحيحه من طريق ثوبان متصلاً.

(٣) الآية ١٢٩ من سورة النساء.

الفرس في آخِيَّته يجول ثم يرجع إلى آخِيَّته. كذلك المؤمن يجول ثم يرجع إلى ربه»(١)، قال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أُعدت للمتقين﴾(٢)، إلى قوله: ﴿ونعم أجر العاملين﴾(٣)، فلم يقل لا يظلمون ولا يذنبون، بل قال: ﴿إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم﴾(٤)، أي بذنب آخر غير الفاحشة؛ فعطف العام على الخاص. كما قال موسى: ﴿رب إني ظلمت نفسي﴾(٥)، وقالت بلقيس: ﴿رب إني ظلمت نفسي﴾(٦)، وقال تعالى عموماً عن أهل القرى المهلكة: ﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم﴾(٧)، فظلموا أنفسهم بارتكابهم ما نهوا عنه؛ وبعصيانهم لأنبيائهم؛ وبتركهم التوبة إلى ربهم.

وقوله تعالى: ﴿ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾(٨) ولهذا قال: ﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾(٩)، ثم قال: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾(١٠). قال مجاهد وغيره: يتبعون الشهوات الزنا. وقال

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٣ ص ٣٨ مع اختلاف يسير في اللفظ.
ورواه ابن حبان في صحيحه. انظر الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان، ج ٢ ص ٣٢٥، تحقيق شعيب الأرناؤوط. ورواه أبو يعلى، انظر مجمع الزوائد، ج ١٠ ص ٢٠١. قال الهيثمي عن رواية أحمد وأبي يعلى: ورجالهما رجال الصحيح غير أبي سليمان الليثي وعبدالله بن الوليد التميمي وكلاهما ثقة. ومعنى الحديث أنه يبعد عن ربه بالذنوب وأصل إيمانه ثابت (لسان العرب، ج ١٤ ص ٢٣).
(٢) الآية ١٣٣ من سورة آل عمران.
(٣) الآية ١٣٦ من سورة آل عمران.
(٤) الآية ١٣٥ من سورة آل عمران.
(٥) الآية ١٦ من سورة القصص.
(٦) الآية ٤٤ من سورة النمل.
(٧) الآية ١٠١ من سورة هود.
(٨) الآية ١٣٥ من سورة آل عمران.
(٩) الآية ٢٧ من سورة النساء.
(١٠) الآية ٢٨ من سورة النساء.

ابن زيد: هم أهل الباطل. وقال السدي: هم اليهود والنصارى والجميع حق؛ فإنهم قد يتبعون الشهوات مع الكفر، وقد يكون مع الاعتراف بأنها معصية.

ثم ذكر أنه «خلق الإنسان ضعيفاً» وسياق الكلام يدل على أنه ضعيف عن ترك الشهوات، فلا بد له من شهوة مباحة يستغني بها عن المحرمة؛ ولهذا قال طاووس ومقاتل: ضعيف في قلة الصبر عن النساء، وقال الزجاج وابن كيسان: ضعيف العزم عن قهر الهوى. وقيل: ضعيف في أصل الخلقة؛ لأنه خلق من ماء مهين، يروى ذلك عن الحسن، لكن لا بد أن يوجد مع ذلك أنه ضعيف عن الصبر ليناسب ما ذكر في الآية، فإنه قال: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾[1] وهو تسهيل التكليف بأن يبيح لكم ما تحتاجون إليه ولا تصبروا عنه. كما أباح نكاح الفتيات؛ وقد قال قبل ذلك: ﴿لمن خشي العنت منكم. وأن تصبروا خير لكم. والله غفور رحيم﴾[2].

فهو سبحانه مع إباحته نكاح الإماء عند عدم الطول وخشية العنت قال: ﴿وأن تصبروا خير لكم﴾ فدل ذلك على أنه يمكن الصبر مع خشية العنت وأنه ليس النكاح كإباحة الميتة عند المخمصة[3]، فإن ذلك لا يمكن الصبر عنه.

[حكم الاستمناء:]

وكذلك من أباح «الاستمناء» عند الضرورة فالصبر عن الاستمناء أفضل. فقد روي عن ابن عباس: أن نكاح الإماء خير منه، وهو خير من

(١) الآية ٢٨ من سورة النساء.

(٢) الآية ٢٥ من سورة النساء.

(٣) المخمصة: المجاعة [انظر مختار الصحاح، ص ١٩٠].

الزنا، فإذا كان الصبر عن نكاح الإماء أفضل فعن الاستمناء بطريق الأولى أفضل.

لا سيما وكثير من العلماء أو أكثرهم يجزمون بتحريمه مطلقاً، وهو أحد الأقوال في مذهب أحمد. واختاره ابن عقيل في المفردات والمشهور عنه ـ يعني عن أحمد ـ أنه محرم إلا إذا خشي العنت. والثالث أنه مكروه إلا إذا خشي العنت. فإذا كان الله قد قال في نكاح الإماء: ﴿وأن تصبروا خير لكم﴾[1] ففيه أولى. وذلك يدل على أن الصبر عن كلاهما ممكن.

فإذا كان قد أباح ما يمكن الصبر عنه، فذلك لتسهيل التكليف كما قال تعالى: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾[2].

و «الاستمناء» لا يباح عند أكثر العلماء سلفاً وخلفاً سواء خشي العنت أو لم يخش ذلك. وكلام ابن عباس وما روي عن أحمد فيه إنما هو لمن خشي «العنت»، وهو الزنا واللواط، خشية شديدة خاف على نفسه من الوقوع في ذلك فأبيح له ذلك لتكسير شدة عنته وشهوته.

وأما من فعل ذلك تلذذاً أو تذكراً أو عادة: بأن يتذكر في حال استمنائه صورة كأنه يجامعها، فهذا كله محرم لا يقول به أحمد ولا غيره وقد أوجب فيه بعضهم الحد والصبر عن هذا من [الواجبات لا من] المستحبات.

[وجوب الصبر عن المحرمات:]

وأما الصبر عن المحرمات فواجب، وإن كانت النفس تشتهيها وتهواها. قال تعالى: ﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله﴾[3] و«الاستعفاف» هو ترك المنهي عنه. كما في الحديث

(١) الآية ٢٥ من سورة النساء.
(٢) الآية ٢٨ من سورة النساء.
(٣) الآية ٣٣ من سورة النور.

الصحيح عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أُعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»[1].

«فالمستغني» لا يستشرف بقلبه، و«المستعف» هو الذي لا يسأل الناس بلسانه، و«المتصبر» هو الذي لا يتكلف الصبر. فأخبر أنه من يتصبر يصبره الله. وهذا كأنه في سياق الصبر على الفاقة، بأن يصبر على مرارة الحاجة، لا يجزع مما ابتلي به من الفقر، وهو الصبر في البأساء والضراء. قال تعالى: ﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾[2].

[الصبر على البلاء:]

و «الضراء» المرض. وهو الصبر على ما ابتلي به من حاجة ومرض وخوف. والصبر على ما ابتلي به باختياره كالجهاد؛ فإن الصبر عليه أفضل من الصبر على المرض الذي يبتلى به بغير اختياره؛ ولذلك إذا ابتلي بالعنت في الجهاد فالصبر على ذلك أفضل من الصبر عليه في بلده؛ لأن هذا الصبر من تمام الجهاد. وكذلك لو ابتلي في الجهاد بفاقة أو مرض حصل بسببه كان الصبر عليه أفضل. كما قد بسط هذا في مواضع.

---

(١) الحديث: رواه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله، ج ١١ ص ٣٠٣ بهامش الفتح. ورواه مسلم في كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر، ج ٢ ص ٧٢٩. ورواه أبو داود في الزكاة، باب في الاستعفاف، ج ٢ ص ٢٩٥. ورواه الترمذي في أبواب البر والصلة، باب ما جاء في الصبر، وقال: هذا حديث حسن صحيح، ج ٣ ص ٢٥٢. ورواه الدارمي في كتاب الزكاة، باب في الاستعفاف عن المسألة، ج ١ ص ٣٨٧/٣٨٨. ورواه مالك في الموطأ، في كتاب الصدقة، باب ما جاء في التعفف عن المسألة، ج ٢ ص ٩٩٧. ورواه أحمد في مسنده، ج ٣ ص ٩٣.

(٢) الآية ١٧٧ من سورة البقرة.

[الصبر على الطاعات:]

وكذلك ما يؤذى الإنسان به في فعله للطاعات كالصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطلب العلم من المصائب، فصبره عليها أفضل من صبره على ما ابتلي به بدون ذلك، وكذلك إذا دعته نفسه إلى محرمات: من رئاسة، وأخذ مال، وفعل فاحشة كان صبره عنه أفضل من صبره على ما هو دون ذلك؛ فإن أعمال البر كلما عظمت كان الصبر عليها أعظم مما دونهما.

فإن في «العلم» و«الامارة» و«الجهاد» و«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» و«الصلاة» و«الحج» و«الصوم» و«الزكاة» من الفتن النفسية وغيرها ما ليس في غيرها. ويعرض في ذلك ميل النفس إلى الرئاسة والمال والصور. فإذا كانت النفس غير قادرة على ذلك لم تطمع فيه، كما تطمع مع القدرة؛ فإنها مع القدرة تطلب تلك الأمور المحرمة؛ بخلاف حالها بدون القدرة فإن الصبر مع القدرة جهاد؛ بل هو من أفضل الجهاد. وأكمل من ثلاثة أوجه:

(أحدها): أن الصبر عن المحرمات أفضل من الصبر على المصائب.

(الثاني): أن ترك المحرمات مع القدرة عليها وطلب النفس لها أفضل من تركها بدون ذلك.

(الثالث): أن طلب النفس لها إذا كان بسبب أمر ديني ـ كمن خرج لصلاة أو طلب علم أو جهاد فابتلي بما يميل إليه من ذلك فإن صبره عن ذلك ـ يتضمن فعل المأمور وترك المحظور؛ بخلاف ما إذا مالت نفسه إلى ذلك بدون عمل صالح؛ ولهذا كان يونس بن عبيد[1] يوصي بثلاث

---

(١) هو يونس بن عبيد بن دينار العبدي، مولاهم أبو عبيد البصري. قال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث، وقال أحمد وابن معين والنسائي: ثقة، كان من أهل البصرة يبيع بها الخز، مات سنة أربعين ومائة [انظر تهذيب التهذيب، ج ١١ ص ٤٤٢؛ وصفة الصفوة، ج ٣ ص ٣٠١؛ والأعلام، ج ٨ ص ٢٦٢].

يقول: لا تدخل على سلطان، وإن قلت: آمره بطاعة الله. ولا تدخل على امرأة، وإن قلت: أعلمها كتاب الله. ولا تصغ أذنك إلى صاحب بدعة، وإن قلت: أرد عليه.

فأمره بالاحتراز من «أسباب الفتنة»، فإن الإنسان إذا تعرض لذلك فقد يفتتن ولا يسلم.

فإذا قدر أنه ابتلي بذلك بغير اختياره أو دخل فيه باختياره وابتلي، فعليه أن يتقي الله ويصبر ويخلص ويجاهد. وصبره على ذلك وسلامته مع قيامه بالواجب من أفضل الأعمال، كمن تولى ولاية وعدل فيها، أو رد على أصحاب البدع بالسنة المحضة ولم يفتنوه، أو علم النساء الدين على الوجه المشروع من غير فتنة.

[الابتــلاء:]

لكن الله إذا ابتلى العبد وقدر عليه أعانه، وإذا تعرض العبد بنفسه إلى البلاء وكله الله إلى نفسه. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبدالرحمن بن سمرة: «لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها»[1] وكذلك قال في الطاعون: «إذا وقع ببلد وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به

---

(١) الحديث أخرجه: البخاري في كتاب الأحكام، باب من لم يسأل الإمارة أعانه الله عليها، ج ١٣ ص ١٢٣/١٢٤؛ ومسلم في كتاب الإمارة، باب النهي عن طلب الإمارة والحرص عليها، ج ٣ ص ١٤٥٦؛ وأبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب ما جاء في طلب الإمارة، ج ٣ ص ٣٤٣؛ والترمذي في كتاب النذور، باب فيمن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، ج ٣ ص ٤٢، وقال: «حديث حسن صحيح»؛ والنسائي في كتاب آداب القضاة، باب النهي عن مسألة الإمارة، ج ٨ ص ٢٢٥؛ والدارمي في كتاب النذور والأيمان، باب من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، ج ٢ ص ٨٦؛ وأحمد في مسنده، ج ٥ ص ٦٢.

بأرض فلا تقدموا عليه»[1]، فمن فعل ما أمره الله به فعرضت له فتنة من غير اختياره فإن الله يعينه عليها بخلاف من تعرض لها.

[التوبـــة:]

لكن باب التوبة مفتوح؛ فإن الرجل قد يسأل الإمارة فيوكل إليها، ثم يندم فيتوب من سؤاله فيتوب الله عليه ويعينه؛ إما على إقامة الواجب، وإما على الخلاص منها؛ وكذلك سائر الفتن. كما قال: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾[2]، وهذه الأمور تحتاج إلى بسط لا يتسع له هذا الموضع.

[الهدايـــة:]

و (المقصود) أن الله سبحانه يريد أن يبين لنا ويهدينا سنن الذين من قبلنا الذين قال فيهم: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾[3]، وهم الذين أمرنا أن نسأله الهداية لسبيلهم في قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم﴾[4]، فهو يحب لنا ويأمرنا أن نتبع صراط هؤلاء، وهو سبيل من أناب إليه، فذكر هنا ثلاثة أمور: البيان، والهداية، والتوبة.

---

(١) الحديث رواه: البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، ج ٦ ص ٥١٣ مع اختلاف يسير في اللفظ، ومسلم في كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها، ج ٤ ص ١٧٣٨/١٧٣٧؛ وأبو داود في كتاب الجنائز، باب الخروج من الطاعون، ج ٣ ص ٤٧٨؛ وأحمد في مسنده، ج ٥ ص ٢٠٨.

(٢) الآية ٥٣ من سورة الزمر.

(٣) الآية ٩٠ من سورة الأنعام.

(٤) الآيتان ٦ ــ ٧ من سورة الفاتحة.

[المراد بالسنن:]

وقيل: المراد بالسنن هنا سنن أهل الحق والباطل، أي: يريد أن يبين لنا سنن هؤلاء وهؤلاء فيهدي عباده المؤمنين إلى الحق، ويضل آخرين، فإن الهدى والضلال إنما يكون بعد البيان. كما قال: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم، فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾[1]، وقال: ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾[2].

فتكون (سنن) متعلقاً بيبين يعني سنن أهل الباطل لا بيهدي، وأهل الحق متعلق بقوله: ويهديكم. وقال الزجاج[3]: السنن الطرق، فالمعنى يدلكم على طاعته، كما دل الأنبياء وتابعيهم، وهذا أولى؛ لأنه قد يقدم فعلين فلا يجعل الأول هو العامل وحده، بل العامل إما الثاني وحده، وإما الاثنان، كقوله: ﴿آتوني أفرغ عليه قطراً﴾[4].

أو إذا أريد هذا التقدير: يبين لكم سنن الذين من قبلكم ويهديكم سنناً. فدل على أنه يهدينا سننهم. والمراد بذلك سنن أهل الحق، بخلاف قوله: ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾[5]، فإنه قال بعدها: ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾[6]، فإنه أراد تعريف عقوبة

---

(١) الآية ٤ من سورة إبراهيم.

(٢) الآية ١١٥ من سورة التوبة.

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري بن سهل الزَّجّاج النحوي، كان من أهل العلم بالأدب والدين المتين. توفي يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة سنة عشر ـ وقيل سنة إحدى عشرة، وقيل: سنة ست عشرة وثلثمائة ببغداد رحمه الله تعالى وقد أناف على ثمانين سنة. [وفيات الأعيان، لابن خلكان، ج ١ ص ٥١].

(٤) الآية ٩٦ من سورة الكهف.

(٥) الآية ١٣٧ من سورة آل عمران.

(٦) الآية ١٣٧ من سورة آل عمران.

الظالمين بالعيان، وهنا فأنزل علينا من القرآن ما يهدينا به سنن الذين من قبلنا، وهم الذين أنعم الله عليهم. وذكر ثلاثة أمور:

«التبيين» و«الهدى» و«التوبة»؛ لأن الإنسان أولاً يحتاج إلى معرفة الخير والشر وما أُمر به وما نهي عنه، ثم يحتاج بعد ذلك إلى أن يهدي فيقصد الحق ويعمل به دون الباطل. وهو سنن الأنبياء والصالحين. ثم لا بد له بعد ذلك من الذنوب فيريد أن يتطهر منها بالتوبة فهو محتاج إلى العلم والعمل به، وإلى التوبة مع ذلك، فلا بد له من التقصير أو الغفلة في سلوك تلك السنن التي هداه الله إليها، فيتوب منها بما وقع من تفريط في كل سنة من تلك السنن، وهذه «السنن» تدخل فيها الواجبات والمستحبات، فلا بد للسالك فيها من تقصير وغفلة فيستغفر الله ويتوب إليه. فإن العبد لو اجتهد مهما اجتهد لا يستطيع أن يقوم لله بالحق الذي أوجبه عليه، فما يسعه إلا الاستغفار والتوبة عقيب كل طاعة.

[تفسير الهداية:]

وقد يقال: «الهداية» هنا البيان والتعريف، أي: يعرفكم سنن الذين من قبلكم من أهل السعادة والشقاوة لتتبعوا هذه وتجتنبوا هذه، كما قال تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾[1]، قال علي وابن مسعود: سبيل الخير والشر. وعن ابن عباس: سبيل الهدى والضلال. وقال مجاهد: سبيل السعادة والشقاوة، أي فطرناه على ذلك، وعرفناه إياه، والجميع واحد. والنجدان الطريقان الواضحان، والنجد المرتفع من الأرض، فالمعنى ألم نعرفه طريق الخير والشر ونبينه له كتبيين الطريقين العاليين؛ لكن الهدى والتبيين والتعريف في هذه الآية يشترك فيه بنو آدم، ويعرفونه بعقولهم.

وأما طريق من تقدم من الأنبياء فلا بد من إخبار الله تعالى عنها كما

---

(١) الآية ١٠ من سورة البلد.

قال: ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنتَ ولا قومك من قبل هذا﴾[1]، لكن يجاب عن هذا بأنه لو أريد هذا المعنى لقال يريد الله ليبين لكم سنن الذين من قبلكم، ولم يحتج أن يذكر الهدى إذا كان المعنى واحداً، فلما ذكر أنه يريد التبيين والهدى علم أن هذا غير هذا، فـ «التبيين» التعريف والتعليم، و «الهدى» هو الأمر والنهي، وهو الدعاء إلى الخير. كما قال تعالى: ﴿ولكل قوم هاد﴾[2]، أي داع يدعوهم إلى الخير. كما قال تعالى: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾[3]، أي تدعوهم إليه دعاء تعليم.

[الإرادة الشرعية والإرادة الكونية:]

وهداه هنا [يتعدى] بنفسه؛ لأن التقدير: ويلزمكم سنن الذين من قبلكم فلا تعدلوا عنها، وليس المراد هنا بالهدى الإلهام. كما في قوله ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾[4]، لكونه لو أراد ذلك لوقع، ولم يكن فينا ضال، بل هذه إرادة شرعية أمرية بمعنى المحبة والرضا، ولهذا قال الزجاج: يريد أن يدلكم على ما يكون سبباً لتوبتكم، فعلق الإرادة بفعل نفسه. فإن الزجاج ظن الإرادة في القرآن ليست إلا كذلك، وليس كما ظن، بل الإرادة المتعلقة بفعله يكون مرادها كذلك، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وأما الإرادة الموجودة في أمره وشرعه فهو كقوله: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم﴾[5] الآية. وقوله: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾[6] ونحو ذلك.

---

(١) الآية ٤٩ من سورة هود.
(٢) الآية ٧ من سورة الرعد.
(٣) الآية ٥٢ من سورة الشورى.
(٤) الآية ٦ من سورة الفاتحة.
(٥) الآية ٦ من سورة المائدة.
(٦) الآية ٣٣ من سورة الأحزاب.

فهذه إرادته لما أمر به، بمعنى أنه يحبه ويرضاه، ويثيب فاعله؛ لا بمعنى أنه أراد أن يخلقه فيكون كما قال: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾[1] الآية.

وكما قال نوح: ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون﴾[2].

فهذه إرادة لما يخلقه ويكونه. كما يقول المسلمون: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وهذه الإرادة متعلقة بكل حادث، والإرادة الشرعية الأمرية لا تتعلق إلا بالطاعات كما يقول الناس لمن يفعل القبيح: يفعل شيئاً ما يريده الله، مع قولهم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. فإن هذه الإرادة «نوعان»، كما قد بسط في موضع آخر.

وقد يراد بالهدى الإلهام، ويكون الخطاب للمؤمنين المطيعين الذين هداهم الله إلى طاعته، فإن الله تعالى أراد أن يتوب عليهم ويهديهم، فاهتدوا، ولولا إرادته لهم ذلك لم يهتدوا، كما قالوا: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾[3].

لكن الخطاب في الآية لجميع المسلمين، كالخطاب بآية الوضوء. والخطاب لأهل البيت بقوله: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس﴾[4]، ولهذا يهدد من لم يطعه. وكما في الصيام: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[5]. فهذه إرادة شرعية أمرية بمعنى المحبة والرضا؛ لا إرادة

---

(١) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام.
(٢) الآية ٣٤ من سورة هود.
(٣) الآية ٤٣ من سورة الأعراف.
(٤) الآية ٣٣ من سورة الأحزاب.
(٥) الآية ١٨٥ من سورة البقرة.

الخلق المستلزمة للمراد؛ لأنه لو كان كذلك لم تكن الآية خطاباً إلا لمن أخذ باليسر، ولمن فعل ما أمر به، وليس كذلك. بل الحكم الشرعي لازم لجميع المسلمين؛ فمن أطاع أثيب ومن عصى عوقب، والذين أطاعوه إنما أطاعوه بهداه لهم: هدى الإلهام، والإعانة بأن جعلهم مهتدين، كما أنه هو الذي جعل المصلي مصلياً، والمسلم مسلماً.

ولو كانت الإرادة هنا من الإنسان مستلزمة لوقوع المراد لم يقل: ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾[1] فإنه حينئذ لا تأثير لإرادة هؤلاء، بل وجودها وعدمها سواء. كما في قول نوح: ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾[2]، فإن ما شاء الله كان وإن لم يشاء الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس.

[اتّباع الشهوات والأهواء:]

والمقصود بالآية تحذيرهم من متابعة الذين يتبعون الشهوات. والمعنى: إني أريد لكم الخير الذي ينفعكم، وهؤلاء يريدون لكم الشر الذي يضركم، كالشيطان الذي يريد أن يغويكم، وأتباعه هم أهل الشهوات فلا تتخذوه وذريته أولياء من دوني، بل اسلكوا طرق الهدى والرشاد، وإياكم وطرق الغي والفساد. كما قال تعالى: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾[3] الآيات. وقوله: ﴿يتبعون الشهوات﴾[4] في الموضعين. فاتباع الشهوة من جنس اتّباع الهوى، كما قال تعالى: ﴿إنما

---

(١) الآية ٢٧ من سورة النساء.
(٢) الآية ٣٤ من سورة هود.
(٣) الآية ١٢٣ من سورة طه.
(٤) الآية ٢٧ من سورة النساء.

يتبعون أهواءهم، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾[1]، وقال: ﴿ولو اتّبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾[3]، وقال تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾[5] وهذا في القرآن كثير.

و «الهوى» مصدر هوى يهوى هوى، ونفس المهوي يسمى هوى ما يهوى، فاتّباعه كاتّباع السبيل. كما قال تعالى: ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾، وكما في لفظ الشهوة، فاتّباع الهوى يراد به نفس مسمى المصدر، أي اتباع إرادته ومحبته التي هي هواه واتّباع الإرادة هو فعل ما تهواه النفس. كقوله تعالى: ﴿واتبع سبيل من أناب إلي﴾[6]، وقوله: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾[7]، وقال: ﴿[8]ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾[9]، فلفظ الاتباع يكون للآمر الناهي، وللأمر والنهي، وللمأمور به والمنهي عنه، وهو الصراط المستقيم.

كذلك يكون للهوى أمر ونهي؛ وهو أمر النفس ونهيها. كما قال

---

(١) الآية ٥٠ من سورة القصص.
(٢) الآية ٧١ من سورة المؤمنون.
(٣) الآية ٧٧ من سورة المائدة.
(٤) الآية ١٤ من سورة محمد.
(٥) الآية ١٨ من سورة الجاثية.
(٦) الآية ١٥ من سورة لقمان.
(٧) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام.
(٨) الآية ٣ من سورة الأعراف.
(٩) فالأول يكون للإنسان والثاني للقول والثالث للفعل (من هامش مجموع الفتاوى، ج ١٠ ص ٥٨٥).

تعالى: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم﴾[1]، ولكن ما يأمر به من الأفعال المذمومة فأحدها مستلزم للآخر فاتّباع الأمر هو فعل المأمور، واتّباع أمر النفس هو فعل ما تهواه فعلى هذا يعلم أن اتباع الشهوات واتباع الأهواء هو اتباع شهوة النفس وهواها، وذلك بفعل ما تشتهيه وتهواه.

بل قد يقال: هذا هو الذي يتعين في لفظ اتباع الشهوات والأهواء؛ لأن الذي يشتهي ويهوى إنما يصير موجوداً بعد أن يشتهي ويهوى، وإنما يذم الإنسان إذا فعل ما يشتهى ويهوى عند وجوده، فهو حينئذ قد فعل؛ ولا ينهى عنه بعد وجوده، ولا يقال لصاحبه: لا تتبع هواك.

وأيضاً فالفعل المراد المشتهى الذي يهواه الإنسان هو تابع لشهوته وهواه، فليست الشهوة والهوى تابعة له: فاتّباع الشهوات هو اتباع شهوة النفس. وإذا جعلت الشهوة بمعنى المشتهى كان مع مخالفة الأصل يحتاج إلى أن يجعل في الخارج ما يشتهى. والإنسان يتبعه كالمرأة المطلوبة، أو الطعام المطلوب، وإن سميت المرأة شهوة والطعام أيضاً كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي»[2]، أي بترك شهوته؛ وهو إنما يترك ما يشتهيه كما يترك الطعام؛ لا أنه يدع طعامه بترك الشهوة الموجودة في

---

(١) الآية ٥٣ من سورة يوسف.

(٢) الحديث أخرجه: البخاري في كتاب التوحيد، باب قوله تعالى ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ ج ١٣ ص ٤٦٤ مع اختلاف في اللفظ؛ ومسلم في كتاب الصيام، باب فضل الصيام، ج ٢ ص ٨٠٧؛ والنسائي في كتاب الصيام، باب فضل الصيام، ج ٤ ص ١٦٣؛ وابن ماجه في كتاب الصيام، باب ما جاء في فضل الصيام، ج ١ ص ٥٢٥؛ ومالك في الموطأ، في كتاب الصيام، باب جامع الصيام، ج ١ ص ٣١٠ مع اختلاف في اللفظ؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٢٥٧.

نفسه، فإن تلك مخلوقة فيه مجبول عليها؛ وإنما يثاب إذا ترك ما تطلبه تلك الشهوة.

و «حقيقة الأمر» أنهما متلازمان: فمن اتبع نفس شهوته القائمة بنفسه اتبع ما يشتهيه؛ وكذلك من اتبع الهوى القائم بنفسه اتبع ما يهواه، فإن ذلك من آثار الإرادة، واتباع الإرادة هو امتثال أمرها، وفعل ما تطلبه، كالمأمور الذي يتبع أمر أميره؛ ولا بد أن يتصور مراده الذي يهواه ويشتهيه في نفسه ويتخيله قبل فعله. فيبقى ذلك المثال كالإمام مع المأموم يتبعه حيث كان؛ وفعله في الظاهر تبع لاتباع الباطن، فتبقى صورة المراد المطلوب المشتهى التي في النفس هي المحركة للإنسان الآمرة له.

ولهذا يقال: العلة الغائية علة فاعلية، فإن الإنسان للعلة الغائية ــ بهذا التصور والإرادة ــ صار فاعلاً للفعل، وهذه الصورة المرادة المتصورة في النفس هي التي جعلت الفاعل فاعلاً، فيكون الإنسان متبعاً لها، والشيطان يمده في الغي، فهو يقوي تلك الصورة ويقوي أثرها ويزين للناس اتباعها، وتلك الصورة تتناول صورة العين المطلوبة ــ كالمحبوب من الصور والطعام والشراب ــ وتتناول نفس الفعل الذي هو المباشرة لذلك المطلوب المحبوب، والشيطان والنفس تحب ذلك، وكلما تصور ذلك المحبوب في نفسه أراد وجوده في الخارج، فإن أول الفكر آخر العمل، وأول البغية آخر الدرك.

ولهذا يبقى الإنسان عند شهوته وهواه أسيراً لذلك، مقهوراً تحت سلطان الهوى، أعظم من قهر كل قاهر، فإن هذا القاهر الهوائي القاهر للعبد هو صفة قائمة بنفسه، لا يمكنه مفارقته البتة والصورة الذهنية تطلبها النفس، فإن المحبوب تطلب النفس أن تدركه، وتمثله لها في نفسها فهو متبع للإرادة. وإن كانت الذهنية والتزين من الزين والمراد التصور في نفسه. والمشتهى الموجود في الخارج له «محركان» التصور والمشتهى هذا

يحركه تحريك طلب وأمر، وهذا يأمره أن يتبع طلبه وأمره، فاتّباع الشهوات والأهواء يتناول هذا كله؛ بخلاف كل قاهر ينفصل عن الإنسان فإنه يمكنه مفارقته مع بقاء نفسه على حالها، وهذا إنما يفارقه بتغير صفة نفسه.

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ثلاث مهلكات: شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه. وثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنا، وكلمة الحق في الغضب والرضا»[1].

وقوله في الحديث: «هوى متبع». فيه دليل على أن المتبع هو ما قام في النفس. كقوله: في الشح المطاع، وجعل الشح مطاعاً، لأنه هو الآمر، وجعل الهوى متبعاً؛ لأن المتبع قد يكون إماماً يقتدى به ولا يكون آمراً. وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إياكم والشح. فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»[2]. فبين أن الشح يأمر بالبخل والظلم والقطيعة. «فالبخل» منع منفعة الناس بنفسه وماله، و«الظلم» هو الاعتداء عليهم.

فالأول هو التفريط فيما يجب فيكون قد فرط فيما يجب، واعتدى عليهم بفعل ما يحرم وخص قطيعة الرحم بالذكر إعظاماً لها؛ لأنها تدخل في الأمرين المتقدمين قبلها.

---

(١) رواه أبو الشيخ في التوبيخ والطبراني في الأوسط ورمز له السيوطي بالضعف. انظر: الجامع الصغير، ج ١ ص ١٣٨. قال المناوي في فيض القدير، ج ٣ ص ٣٠٧: قال الحافظ العراقي: سنده ضعيف.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الزكاة، باب في الشح، ج ٢ ص ٣٢٤؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ١٥٩/١٦٠ ولم أجده في البخاري أو مسلم بهذا اللفظ. قال الساعاتي في الفتح الرباني، ج ١٩ ص ٢١٦: وسنده صحيح.

[تفسير البخل والشح والحسد:]

وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه﴾[1]، هو أن لا يأخذ شيئاً مما نهاه الله عنه، ولا يمنع شيئاً أمره الله بأدائه «فالشح» يأمر بخلاف أمر الله ورسوله، فإن الله ينهى عن الظلم ويأمر بالإحسان، والشح يأمر بالظلم وينهى عن الإحسان.

وقد كان عبدالرحمن بن عوف يكثر في طوافه بالبيت وبالوقوف بعرفة أن يقول: اللهم قني شح نفسي، فسئل عن ذلك فقال: إذا وقيت شح نفسي وقيت الظلم والبخل والقطيعة. وفي رواية عنه قال: إني أخاف أن أكون قد هلكت قال: وما ذاك؟ قال: اسمع الله يقول: ﴿ومن يوق شح نفسه﴾، وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء، فقال ليس ذاك بالشح الذي ذكره الله في القرآن إنما الشح أن تأكل مال أخيك ظلماً وإنما يكن بالبخل وبئس الشيء البخل.

وقد ذكر تعالى «الشح» في سياق ذكر الحسد والإيثار في قوله: ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾[2] ـ ثم قال ـ: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[3]، فمن وقى شح نفسه لم يكن حسوداً باغياً على المحسود، و «الحسد» أصله بغض المحسود.

و «الشح» يكون في الرجل مع الحرص وقوة الرغبة في المال وبغض للغير وظلم له، كما قال تعالى: ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا! ولا يأتون البأس إلا قليلاً أشحة عليكم﴾ الآيات ـ

---

(١) الآية ٩ من سورة الحشر.
(٢) الآية ٩ من سورة الحشر.
(٣) الآية ٩ من سورة الحشر.

إلى قوله: ﴿أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم﴾[1]، فشحهم على المؤمنين وعلى الخير يتضمن كراهيته وبغضه، وبغض الخير يأمر بالشر وبغض الإنسان يأمر بظلمه وقطيعته كالحسد؛ فإن الحاسد يأمر حاسده بظلم المحسود وقطيعته، كابني آدم وإخوة يوسف.

فـ «الحسد والشح» يتضمنان بغضاً وكراهية فيأمران بمنع الواجب وبظلم ذلك الشخص، فإن الفعل صدر فيه عن بغض، بخلاف الهوى فإن الفعل صدر فيه عن حب أحب شيئاً فأتبعه ففعله، وذلك مقصوده أمر عدمي والعدم لا ينفع. ولكن ذاك القصد أمر بأمر وجودي، فأطيع أمره.

وابن مسعود جعل البخل خارجاً عن الشح والنبي صلى الله عليه وسلم جعل الشح يأمر بالبخل[2].

ومن الناس من يقول: «الشح، والبخل» سواء. كما قال ابن جرير: الشح في كلام العرب هو البخل ومنع الفضل من المال. وليس كما قال، بل ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم وابن مسعود أحق أن يتبع: فإن «البخيل» قد يبخل بالمال محبة لما يحصل له به من اللذة والتنعم وقد لا يكون متلذذاً به ولا متنعماً، بل نفسه تضيق عن إنفاقه وتكره ذلك حتى يكون يكره أن ينفع نفسه منه مع كثره ماله، وهذا قد يكون مع التذاذه بجمع المال ومحبته لرؤيته، وقد لا يكون هناك لذة أصلاً؛ بل يكره أن يفعل إحساناً إلى أحد حتى لو أراد غيره أن يعطي كره ذلك منه بغضاً للخير لا للمعطي ولا للمعطي، بل بغضاً منه للخير وقد يكون بغضاً وحسداً للمعطى أو للمعطى وهذا هو «الشح» وهذا هو الذي يأمر بالبخل قطعاً، ولكن كل بخل يكون عن شح. فكل شحيح بخيل وليس كل بخيل شحيحاً.

---

(١) الآيتان ١٨ ــ ١٩ من سورة الأحزاب.

(٢) إشارة لقوله صلى الله عليه وسلم: «أمرهم بالبخل فبخلوا».

قال الخطابي[1]: «الشح» أبلغ في المنع من البخل، والبخل إنما هو من أفراد الأمور وخواص الأشياء، والشح عام فهو كالوصف اللازم للإنسان من قبل الطبع والجبلة..

وحكى الخطابي عن بعضهم أنه قال: «البخل» أن يضن الإنسان بماله و«الشح» أن يضن بماله ومعروفه، وقيل: «الشح» أن يشح بمعروف غيره على غيره و«البخل» أن يبخل بمعروفه على غيره والذين يتبعون الشهوات ويتبعون أهواءهم يحبون ذلك ويريدونه فاتبعوا محبتهم وإرادتهم من غير علم، فلم ينظروا هل ذلك نافع لهم في العاقبة أو ضار.

[درجات اتباع الهوى:]

ولهذا قال: ﴿فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾، ثم قال: ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾[2]، و«اتباع الهوى» درجات: فمنهم المشركون والذين يعبدون من دون الله ما يستحسنون بلا علم، ولا برهان، كما قال: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾[3]: أي يتخذ إلهه الذي يعبده وهو ما يهواه من آلهة، ولم يقل إن هواه نفس إلهه فليس كل من يهوى شيئاً يعبده، فإن الهوى أقسام، بل المراد أنه جعل المعبود الذي يعبده هو ما يهواه فكانت عبادته تابعة لهوى نفسه في العبادة فإنه لم يعبد ما يحب أن يعبد، ولا عبد العبادة التي أمر بها.

وهذه حال «أهل البدع» فإنهم عبدوا غير الله، وابتدعوا عبادات

---

(١) هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البُستي، صاحب التصانيف.. كان ثقة متثبتاً من أوعية العلم، مات ببُست في ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة (طبقات الحفاظ، ص ٤٠٤/٤٠٥).

(٢) الآية ٥٠ من سورة القصص.

(٣) الآية ٢٣ من سورة الجاثية.

زعموا أنهم يعبدون الله بها، فهم إنما اتبعوا أهواءهم، فإن أحدهم يتبع محبة نفسه وذوقها ووجدها وهواها من غير علم، ولا هدى ولا كتاب منير.

فلو اتبع العلم والكتاب المنير لم يعبد إلا الله بما شاء، لا بالحوادث والبدع.

و (المقصود) أن الآلهة كثيرة، والعبادات لها متنوعة، وبالجملة فكل ما يريده الإنسان ويحبه لا بد أن يتصوره في نفسه، فتلك الصورة العلمية محركة له إلى محبوبه ولوازم الحب، فمن عبده عبد غير الله وتمثلت له الشياطين في صورة من يعبده، وهذا كثير ما زال ولم يزل، ولهذا كان كل من عبد شيئاً غير الله فإنما يعبد الشيطان، ولهذا يقارن الشيطان الشمس عند طلوعها وغروبها واستوائها ليكون سجود من يعبدها له.

وقد كانت «الشياطين» تتمثل في صورة من يعبد، كما كانت تكلمهم من الأصنام التي يعبدونها، وكذلك في وقتنا خلق كثير من المنتسبين إلى الإسلام، والنصارى والمشركين ممن أشرك ببعض من يعظمه من الأحياء والأموات من المشايخ وغيرهم، فيدعوه ويستغيث به في حياته وبعد مماته، فيراه قد أتاه وكلمه وقضى حاجته، وإنما هو شيطان تمثل على صورته ليغوي هذا المشرك.

والمبتلون بـ «العشق» لا يزال الشيطان يمثل لأحدهم صورة المعشوق أو يتصور بصورته فلا يزال يرى صورته مع مغيبه عنه بعد موته، فإنما جلاه الشيطان على قلبه، ولهذا إذا ذكر العبد الله الذكر الـذي يخنس منه الوسواس الخناس خنس هذا المثال الشيطاني، وصورة المحبوب تستولي على المحب أحياناً حتى لا يرى غيرها، ولا يسمع غير كلامها، فتبقى نفسه مشتغلة بها.

والذين يسلكون في محبة الله مسلكاً ناقصاً يحصل لأحدهم نوع من

ذلك يسمى «الاصطلام» و «الفناء» يغيب بمحبوبه عن محبته، وبمعروفه عن معرفته، وبمذكوره عن ذكره، حتى لا يشعر بشيء من أسماء الله وصفاته وكلامه وأمره ونهيه.

و «منهم» من قد ينتقل من هذا إلى «الاتحاد»، فيقول: أنا هو، وهو أنا، وأنا الله، ويظن كثير من المساكين أن هذا هو غاية السالكين، وأن هذا هو «التوحيد» الذي هو نهاية كل سالك. وهم غالطون في هذا؛ بل هذا من جنس قول النصارى، ولكن ضلوا لأنهم لم يسلكوا الطريق الشرعية في الباطن في خبر الله وأمره.

وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع.

و (المقصود): أن المتبعين لشهواتهم من الصور والطعام والشراب واللباس يستولي على قلب أحدهم ما يشتهيه حتى يقهره ويملكه، ويبقى أسيراً ما يهواه يصرفه كيف تصرف ذلك المطلوب، ولهذا قال بعض السلف: ما أنا على الشاب الناسك بأخوف مني عليه من سبع ضار يثب عليه من صبي حدث يجلس إليه.

وذلك أن النفس الصافية التي فيها رقة «الرياضة» ولم تنجذب إلى محبة الله وعبادته انجذاباً تاماً، ولا قام بها من خشية الله التامة ما يصرفها عن هواها متى صارت تحت صورة من الصور استولت تلك الصورة عليها، كما يستولي السبع على ما يفترسه؛ فالسبع يأخذ فريسته بالقهر، ولا تقدر الفريسة على الامتناع منه، كذلك ما يمثله الإنسان في قلبه من الصور المحبوبة تبتلع قلبه وتقهره، فلا يقدر قلبه على الامتناع منه، فيبقى قلبه مستغرقاً في تلك الصورة أعظم من استغراق الفريسة في جوف الأسد؛ لأن المحبوب المراد هو غاية النفس، له عليها سلطان قاهر.

[القلب بين الحب والخوف:]

و «القلب» يغرق فيما يستولي عليه: إما من محبوب وإما من مخوف، كما يوجد من محبة المال والجاه والصور، والخائف من غيره يبقى قلبه وعقله مستغرقان فيه كما يغرق الغريق في الماء، فلا بد أن يستولي عليها ما يحيط بها من الأجسام، والقلوب يستولي عليها ما يتمثل لها من المخاوف، والمحبوبات والمكروهات، فالمحبوب يطلبه والمكروه يدفعه، والرجاء يتعلق بالمحبوب والخوف يتعلق بالمكروه، ولا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يذهب السيئات إلا الله ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وإن يردك بخير فلا راد لفضله، يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم﴾[1]، ﴿وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجئرون﴾[2].

وإذا دعا العبد ربه بإعطاء المطلوب ودفع المرهوب جعل له من الإيمان بالله ومحبته ومعرفته وتوحيده ورجائه وحياة قلبه واستنارته بنور الإيمان ما قد يكون أنفع له من ذلك المطلوب إن كان عرضاً من الدنيا، وأما إذا طلب منه أن يعينه على ذكره وشكره وحسن عبادته وما يتبع ذلك فهنا المطلوب قد يكون أنفع من الطلب، وهو الدعاء والمطلوب الذكر والشكر، وقيام العبادة على أحسن الوجوه وغير ذلك. وهذا لبسطه موضع آخر.

[استيلاء الشهوات والأهواء على القلوب:]

و (المقصود): أن القلب قد يغمره فيستولي عليه ما يريده العبد، ويحبه وما يخافه ويحذره كائناً من كان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بل قلوبهم في

---

(١) الآية ١٠٧ من سورة يونس.

(٢) الآية ٥٣ من سورة النحل.

غمرة من هذا، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون﴾[1]، فهي فيما يغمرها عما أنذرت به، فيغمرها ذلك عن ذكر الله والدار الآخرة وما فيها من النعيم، والعذاب الأليم. قال الله تعالى: ﴿فذرهم في غمرتهم حتى حين﴾[2]: أي فيما يغمر قلوبهم من حب المال والبنين المانع لهم من المسارعة في الخيرات والأعمال الصالحة. وقال تعالى: ﴿قتل الخراصون الذين هم في غمرة ساهون﴾[3] الآيات: أي ساهون عن أمر الآخرة، فهم في غمرة عنها، أي فيما يغمر قلوبهم من حب الدنيا ومتاعها، ساهون عن أمر الآخرة، وما خلقوا له.

وهذا يشبه قوله: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾[4]، فالغمرة تكون من اتباع الهوى، والسهو من جنس الغفلة؛ ولهذا قال من قال: «السهو» الغفلة عن الشيء، وذهاب القلب عنه، وهذا جماع الشر «الغفلة» و«الشهوة».

فـ«الغفلة» عن الله والدار الآخرة تسد باب الخير الذي هو الذكر واليقظة.

و«الشهوة» تفتح باب الشر والسهو والخوف، فيبقى القلب مغموراً فيما يهواه ويخشاه، غافلاً عن الله، رائداً غير الله، ساهياً عن ذكره، قد اشتغل بغير الله، قد انفرط أمره، قد ران[5] حب الدنيا على قلبه، كما روي في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد

---

(١) الآية ٦٣ من سورة المؤمنون.
(٢) الآية ٥٤ من سورة المؤمنون.
(٣) الآيتان ١٠ ــ ١١ من سورة الذاريات.
(٤) الآية ٢٨ من سورة الكهف.
(٥) ران: أي غلب وغطى [لسان العرب، ج ١٣ ص ١٩٢].

القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس[١]، وإذا شيك[٢] فلا انتقش[٣]، إن أعطي رضي، وإن منع سخط»[٤].

جعله عبد ما يرضيه وجوده ويسخطه فقده، حتى يكون عبد الدرهم وعبد ما وصف في هذا الحديث، و«القطيفة» هي التي يجلس عليها فهو خادمها كما قال بعض السلف: إلبس من الثياب ما يخدمك، ولا تلبس منها ما تكن أنت تخدمه، وهي كالبساط الذي تجلس عليه، و«الخميصة» هي التي يرتدي بها، وهذا من أقل المال. وإنما نبه به النبي صلى الله عليه وسلم على ما هو أعلى منه، فهو عبد لذلك: فيه أرباب متفرقون، وشركاء متشاكسون.

ولهذا قال: «إن أعطي رضي، وإن منع سخط». فما كان يرضي الإنسان حصوله ويسخطه فقده فهو عبده، إذ العبد يرضى باتصاله بهما، ويسخط لفقدهما. و«المعبود الحق» الذي لا إله إلا هو إذا عبده المؤمن وأحبه حصل للمؤمن بذلك في قلبه إيمان، وتوحيد ومحبة، وذكر، وعبادة، فيرضى بذلك، وإذا منع من ذلك غضب.

وكذلك من أحب شيئاً فلا بد من أن يتصوره في قلبه، ويريد اتصاله به بحسب الإمكان.

قال الجنيد[٥]: لا يكون العبد عبداً حتى يكون مما سوى الله تعالى

---

(١) انتكس: أي انقلب على رأسه [لسان العرب، ج ٦ ص ٢٤١].

(٢) شيك: أي دخل في جسمه شوكة [لسان العرب، ج ١٠ ص ٤٥٣].

(٣) المقصود إذا دخلت في جسمه شوكة فلا أخرجها من موضعها وهذا دعاء عليه.

(٤) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، ج ٦ ص ٨١ مع اختلاف في اللفظ؛ ورواه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب في المكثرين، ج ٢ ص ١٣٨٦ مع اختلاف في اللفظ.

(٥) الجنيد: هو أبو القاسم الخزاز القواريري، كان أبوه يبيع الزجاج وكان هو خزازاً وأصله من نهاوند إلا أن مولده ومنشأه ببغداد. توفي يوم السبت في شوال سنة ثمانٍ وتسعين ومائتين [صفة الصفوة، ج ٢ ص ٤١٦. وانظر: حلية الأولياء، لأبي نعيم، ج ١٠ ص ٢٥٥؛ ووفيات الأعيان، ج ١ ص ٣٧٢؛ والأعلام، ج ٢ ص ١٤١].

حراً. وهذا مطابق لهذا الحديث، فإنه لا يكون عبداً لله خالصاً مخلصاً دينه لله كله حتى لا يكون عبداً لما سواه، ولا فيه شعبة، ولا أدنى جزء من عبودية ما سوى الله، فإذا كان يرضيه ويسخطه غير الله فهو عبد لذلك الغير، ففيه من الشرك بقدر محبته، وعبادته لذلك الغير زيادة.

قال «الفضيل بن عياض»[1]: والله ما صدق الله في عبوديته من لأحد من المخلوقين عليه ربانية. وقال زيد بن عمرو بن نفيل[2]:

أرباً واحداً، أم ألف رب أدين إذا انقسمت الأمور؟!

روى الإمام أحمد والترمذي والطبراني من حديث أسماء بنت عميس قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بئس العبد عبد تخيل واختال، ونسي الكبير المتعال، بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الأعلى، بئس العبد عبد سها ولها ونسي المقابر والبلى، بئس العبد عبد بغى واعتدى ونسي المبدأ والمنتهى، بئس العبد عبد يختل الدنيا بالدين، بئس العبد عبد يختل الدين بالشبهات، بئس العبد عبد رغب يذله ويزيله عن الحق، بئس العبد عبد طمع يقوده، بئس العبد عبد هوى يضله»[3]. قال

---

(١) هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي اليربوعي أبو علي. الزاهد الخراساني... ولد بخراسان بكورة ابيورد وقدم الكوفة وهو كبير فسمع الحديث من منصور وغيره ثم تعبد وانتقل إلى مكة فنزلها إلى أن مات بها في أول سنة سبع وثمانين ومائة، وكان ثقة نبيلاً فاضلاً عابداً [تهذيب التهذيب، ج ٨ ص ٥٣٨].

(٢) هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبدالعزي القرشي العدوي، نصير المرأة في الجاهلية وأحد الحكماء، وهو ابن عم عمر بن الخطاب. لم يدرك الإسلام، وكان يكره عبادة الأوثان ولا يأكل مما ذبح عليها. توفي سنة ٦٠٦م [الأعلام، ج ٣ ص ٦٠].

(٣) الحديث رواه: الترمذي في أبواب صفة القيامة، ج ٤ ص ٥٠، وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده بالقوي. ورواه الطبراني في المعجم الكبير، ج ٢٤ ص ١٥٦/١٥٧؛ ورواه الحاكم، ج ٤ ص ٣١٦. وقال الذهبي في التلخيص: إسناده مظلم.

الترمذي: غريب. وفي الحديث الصحيح المتقدم ما يقويه. والله أعلم.

وكذلك أحاديث وآثار كثيرة رويت في معنى ذلك. كما قال تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله﴾[1].

وطالب الرئاسة ــ ولو بالباطل ــ ترضيه الكلمة التي فيها تعظيمه وإن كانت باطلاً، وتغضبه الكلمة التي فيها ذمه وإن كانت حقاً. والمؤمن ترضيه كلمة الحق له وعليه، وتغضبه كلمة الباطل له وعليه؛ لأن الله تعالى يحب الحق والصدق والعدل، ويبغض الكذب والظلم.

فإذا قيل: الحق والصدق والعدل الذي يحبه الله أحبه، وإن كان فيه مخالفة هواه؛ لأن هواه قد صار تبعاً لما جاء به الرسول. وإذا قيل: الظلم والكذب فالله يبغضه، والمؤمن يبغضه، ولو وافق هواه.

وكذلك طالب «المال» ــ ولو بالباطل ــ كما قال تعالى: ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾[2]، وهؤلاء هم الذين قال [فيهم]: «تعس عبد الدينار»[3] الحديث. فكيف إذا استولى على القلب ما هو أعظم استعباداً من الدرهم والدينار من الشهوات والأهواء، والمحبوبات التي تجذب القلب عن كمال محبته لله وعبادته؟! لما فيها من المزاحمة والشرك بالمخلوقات، كيف تدفع القلب وتزيغه عن كمال محبته لربه وعبادته وخشيته، لأن كل محبوب يجذب قلب محبه إليه، ويزيغه عن محبة غير محبوبه، وكذلك المكروه يدفعه ويزيله ويشغله عن عبادة الله تعالى.

---

(١) الآية ١٦٥ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٥٨ من سورة التوبة.
(٣) انظر الحديث وتخريجه ص ٣٥ ــ ٣٦.

ولهذا روى الإمام أحمد في مسنده وغيره: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: «الفقر تخافون؟! لا أخاف عليكم الفقر. إنما أخاف عليكم الدنيا، حتى إن قلب أحدكم إذا زاغ لا يزيغه إلا هي»[1].

وكذلك الذين يحبون العبد كأصدقائه، والذين يبغضونه كأعدائه، فالذين يحبونه يجذبونه إليهم، فإذا لم تكن المحبة منهم له لله كان ذلك مما يقطعه عن الله، والذين يبغضونه يؤذونه ويعادونه فيشغلونه بأذاهم عن الله، ولو أحسن إليه أصدقاؤه الذين يحبونه لغير الله أوجب إحسانهم إليه محبته لهم، وانجذاب قلبه إليهم، ولو كان على غير الاستقامة، وأوجب مكافأته لهم، فيقطعونه عن الله وعبادته.

[خلاص القلب من الفتنة:]

فلا تزول الفتنة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كله لله عز وجل، فيكون حبه لله ولما يحبه الله، وبغضه لله ولما يبغضه الله، وكذلك موالاته ومعاداته، وإلا فمحبة المخلوق تجذبه، وحب الخلق له سبب يجذبهم به إليه، ثم قد يكون هذا أقوى، وقد يكون هذا أقوى، فإذا كان هو غالباً لهواه لم يجذبه مغلوب مع هواه، ولا محبوباته إليها؛ لكونه غالباً لهواه ناهياً لنفسه عن الهوى، لما في قلبه من خشية الله ومحبته التي تمنعه عن انجذابه إلى المحبوبات.

وأما حب الناس له فإنه يوجب أن يجذبوه هم بقوتهم إليهم، فإن لم يكن فيه قوة يدفعهم بها عن نفسه من محبة الله وخشيته، وإلا جذبوه وأخذوه إليهم، كحب امرأة العزيز ليوسف: فإن قوة «يوسف» ومحبته لله

---

(١) الحديث: رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٦ ص ٢٤ مع اختلاف في اللفظ؛ وابن ماجه في المقدمة، باب اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ج ١ ص ٤ مع اختلاف يسير في اللفظ.

وإخلاصه وخشيته كانت أقوى من جمال امرأة العزيز وحسنها وحبه لها، هذا إذا أحب أحدهم صورته، مع أن هنا الداعي قوي منه ومنهم، فهنا المعصوم من عصمه الله، وإلا فالغالب على الناس في المحبة من الطرفين أنه يقع بعض الشر بينهم.

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان»[1].

[حال الموالين لغير الله:]

وقد يحبونه لعلمه أو دينه أو إحسانه أو غير ذلك؛ فالفتنة في هذا أعظم؛ إلا إذا كانت فيه قوة إيمانية، وخشية وتوحيد تام، فإن فتنة العلم والجاه والصور فتنة لكل مفتون. وهم مع ذلك يطلبون منه مقاصدهم، إن لم يفعلها وإلا نقص الحب، أو حصل نوع بغض، وربما زاد أو أدى إلى الانسلاخ من حبه، فصار مبغوضاً بعد أن كان محبوباً، فأصدقاء الإنسان يحبون استخدامه واستعماله في أغراضهم، حتى يكون كالعبد لهم، وأعداؤه يسعون في أذاه وإضراره، وأولئك يطلبون منه انتفاعهم، وإن كان مضراً له مفسداً لدينه لا يفكرون في ذلك، وقليل منهم الشكور.

فالطائفتان في الحقيقة لا يقصدون نفعه ولا دفع ضرره، وإنما يقصدون أغراضهم به، فإن لم يكن الإنسان عابداً الله، متوكلاً عليه موالياً له وموالياً فيه ومعادياً، وإلا أكلته الطائفتان، وأدى ذلك إلى هلاكه في الدنيا والآخرة.

وهذا هو المعروف من أحوال بني آدم، وما يقع بينهم من المحاربات والمخاصمات والاختلاف والفتن. قوم يوالون زيداً ويعادون عمرواً.

---

(١) رواه الترمذي في أبواب الرضاع، ج ٢ ص ٣١٩؛ ورواه الإمام أحمد في مسنده، ج ١ ص ٢٦.

وآخرون بالعكس، لأجل أغراضهم، فإذا حصلوا على أغراضهم ممن يوالونه وما هم طالبـوه من زيد انقلبوا إلى عمرو، وكذلك أصحاب عمرو كما هو الواقع بين أصناف الناس.

وكذلك «الرأس» من الجانبين، يميل إلى هؤلاء الذين يوالونه وهم إذا لم تكن الموالاة لله أضر عليك من أولئك، فإن أولئك إنما يقصدون إفساد دنياه: إما بقتله، أو بأخذ ماله، وإما بإزالة منصبه، وهذا كله ضرر دنيوي لا يعتد به إذا سلم العبد، وهو عكس حال أهل الدنيا ومحبيها الذين لا يعتدون بفساد دينهم مع سلامة دنياهم. فهم لا يبالون بذلك. وأما «دين العبد» الذي بينه وبين الله فهم لا يقدرون عليه.

[ضرر الموالاة لأجل المصلحة:]

وأما أولياؤه الذين يوالونه للأغراض، فإنما يقصدون منه فساد دينه بمعاونته على أغراضهم وغير ذلك، فإن لم يفعل انقلبوا أعداء. فدخل بذلك عليه الأذى من «جهتين»:

من جهة مفارقتهم.

ومن جهة عداوتهم.

وعداوتهم أشد عليه من عداوة أعدائه؛ لأنهم قد شاهدوا منه. وعرفوا ما لم يعرفه أعداؤه. فاستجلبوا بذلك عداوة غيرهم فتتضاعف العداوة.

وإن لم يجب مفارقتهم احتاج إلى مداهنتهم[1] ومساعدتهم على ما يريدونه، وإن كان فيه فساد دينه. فإن ساعدهم على نيل مرتبة دنيوية ناله مما يعملون فيها نصيباً وافراً وحظاً تاماً من ظلمهم وجورهم وطلبوا منه أيضاً أن يعاونهم على أغراضهم، ولو فاتت أغراضه الدنيوية. فكيف

---

(١) المداهنة: المصانعة واللين [لسان العرب، ج ١٣ ص ١٦٢].

بالدينية إن وجدت فيه أوعنده!! فإن الإنسان ظالم جاهـل لا يطلب إلا هواه.

فإن لم يكن هذا في الباطن يحسن إليهم، ويصبر عـلى أذاهم، ويقضي حوائجهم لله، وتكون استعانته عليهم بالله تامة، وتوكله على الله تام. وإلا أفسدوا دينه ودنياه، كما هو الواقع المشاهد من الناس ممن يطلب الرئاسة الدنيوية، فإنه يطلب منه من الظلم والمعاصي ما ينال به تلك الرئاسة، ويحسن له هذا الرأي، ويعاديه إن لم يقم معه، كما قد جرى ذلك مع غير واحد.

وذلك يجري فيمن يحب شخصاً لصورته، فإنه يخدمه ويعظمـه ويعطيه ما يقدر عليه، ويطلب منه من المحرم ما يفسد دينه.

وفيمن يحب صاحب «بدعة» لكونه له داعية إلى تلك البدعة، يحوجه إلى أن ينصر الباطل الذي يعلم أنه باطل. وإلا عاداه، ولهذا صار علماء الكفار وأهل البدع مع علمهم بأنهم على الباطل ينصرون ذلك الباطل؛ لأجل الأتباع والمحبين، ويعادون أهل الحق ويهجنون[1] طريقهم.

فمن أحب غير الله ووالى غيره كره محب الله ووليه، ومن أحب أحداً لغير الله كان ضرر أصدقائه عليه أعظم من ضرر أعدائه؛ فإن أعداءه غايتهم أن يحولوا بينه وبين هذا المحبوب الدنيوي، والحيلولة بينه وبينه رحمة في حقه، وأصدقاؤه يساعدونه على نفي تلك الرحمة وذهابها عنه، فأي صداقة هذه؟! ويحبون بقاء ذلك المحبوب ليستعملوه في أغراضهم، وفيما يحبونه، وكلاهما ضرر عليه.

قال تعالى: ﴿إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا، ورأوا العذاب،

---

(١) يهجّنون: أي يقبّحون [لسان العرب، ج ١٣ ص ٤٣٤].

وتقطعت بهم الأسباب﴾[1]. قال الفضيل بن عياض عن ليث عن مجاهد: هي المودات التي كانت لغير الله، والوصلات التي كانت بينهم في الدنيا ﴿وقال الذين اتَّبعوا: لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم، وما هم بخارجين من النار﴾[2]. فالأعمال التي أراهم الله حسرات عليهم: هي الأعمال التي يفعلها بعضهم مع بعض في الدنيا كانت لغير الله، ومنها الموالاة والصحبة والمحبة لغير الله. فالخير كله في أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[سبب المحبة:]

ومما يحقق هذه الأمور أن المحب يجذب، والمحبوب يجذب. فمن أحب شيئاً جذبه إليه بحسب قوته، ومن أحب صورة جذبته تلك الصورة إلى المحبوب الموجود في الخارج بحسب قوته، فإن المحب علته فاعلية، والمحبوب علته غائية، وكل منهما له تأثير في وجود المعلول، والمحب إنما يجذب المحبوب بما في قلب المحب من صورته التي يتمثلها، فتلك الصورة تجذبه بمعنى انجذابه إليها، لأنها هي في نفسها قصد وفعل، فإن في المحبوب من المعنى المناسب ما يقتضي انجذاب المحب إليه كما ينجذب الإنسان إلى الطعام ليأكله، وإلى امرأة ليباشرها، وإلى صديقه ليعاشره، وكما تنجذب قلوب المحبين لله ورسوله إلى الله ورسوله، والصالحين من عباده لما اتصف به سبحانه من الصفات التي يستحق لأجلها أن يحب ويعبد.

بل لا يجوز أن يحب شيء من الموجودات لذاته إلا هو سبحانه وبحمده، فكل محبوب في العالم إنما يجوز أن يحب لغيره لا لذاته، والرب تعالى هو الذي يجب أن يحب لنفسه، وهذا من معاني إلهيته و ﴿لو كان فيهما

---

(1) الآية ١٦٦ من سورة البقرة.

(2) الآية ١٦٧ من سورة البقرة.

آلهة إلا الله لفسدتا﴾[1]، فإن محبة الشيء لذاته شرك، فلا يحب لذاته إلا الله، فإن ذلك من خصائص إلهيته، فلا يستحق ذلك إلا الله وحده، وكل محبوب سواه إن لم يحب لأجله أو لما يحب لأجله فمحبته فاسدة.

والله تعالى خلق في النفوس حب الغذاء، وحب النساء، لما في ذلك من حفظ الأبدان وبقاء الإنسان؛ فإنه لولا حب الغذاء لما أكل الناس ففسدت أبدانهم، ولولا حب النساء لما تزوجوا فانقطع النسل والمقصود: بوجود ذلك بقاء كل منهم ليعبدوا الله وحده، ويكون هو المحبوب المعبود لذاته الذي لا يستحق ذلك غيره.

وإنما تحب الأنبياء والصالحون تبعاً لمحبته، فإن من تمام حبه حب ما يحبه، وهو يحب الأنبياء والصالحين، ويحب الأعمال الصالحة، فحبها لله هو من تمام حبه، وأما الحب معه فهو حب المشركين الذين يحبون أندادهم كحب الله، فالمخلوق إذا أحب لله كان حبه جاذباً إلى حب الله، وإذا تحاب الرجلان في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، كان لكل منهما جاذباً للآخر إلى حب الله، كما قال تعالى: «حقت محبتي للمتحابين فيّ، وحقت محبتي للمتجالسين فيّ، وحقَّت محبتي للمتباذلين[2] فيّ، وإن لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يقربهم من الله وهم قوم تحابوا بروحِ الله على غير أموال يتباذلونها، ولا أرحام يتواصلون بها، إن لوجوههم لنوراً، وإنهم لعلى كراس من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس»[3].

---

(1) الآية ٢٢ من سورة الأنبياء.

(2) المتباذلين فيّ: الذين يبذلون أموالهم وأنفسهم في سبيل الله في الجهاد وغيره مما أمر به.

(3) رواه مالك في الموطأ في كتاب الشعر، باب ما جاء في المتحابين في الله، ج ٢ ص ٩٥٤ ولفظه: «وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ». ورواه الإمام أحمد في مسنده مع اختلاف في اللفظ، ج ٥ ص ٢٢٩/٢٣٧. قال المنذري في الترغيب والترهيب، ج ٤ ص ١٩ بإسناد صحيح. ورواه ابن حبان في صحيحه. انظر موارد الظمآن، ص ٦٢٢.

فإنك إذا أحببت الشخص لله كان الله هو المحبوب لذاته، فكلما تصورته في قلبك تصورت محبوب الحق فأحببته، فازداد حبك لله. كما إذا ذكرت النبـي صلى الله عليه وسلم، والأنبياء قبله، والمرسلين وأصحابهم الصالحين، وتصورتهم في قلبك، فإن ذلك يجذب قلبك إلى محبة الله، المنعم عليهم، وبهم، إذا كنت تحبهم لله، فالمحبوب لله يجذب إلى محبة الله، والمحب لله إذا أحب شخصاً لله فإن الله هو محبوبه، فهو يحب أن يجذبه إلى الله تعالى، وكل من المحب لله والمحبوب لله يجذب إلى الله.

وهكذا إذا كان الحب لغير الله، كما إذا أحب كل من الشخصين الآخر بصورة: كالمرأة مع الرجل، فإن المحب يطلب المحبوب والمحبوب يطلب المحب، بانجذاب المحبوب، فإذا كانا متحابين صار كل منهما جاذباً مجذوباً من الوجهين، فيجب الاتصال، ولو كان الحب من أحد الجانبين لكان المحب يجذب المحبوب والمحبوب يجذبه، لكن المحبوب لا يقصد جذبه، والمحب يقصد جذبه وينجذب.

وهذا «سبب التأثير في المحبوب» إما تمثل يحصل في قلبه فينجذب وإما أن ينجذب بلا محبة: كما يأكل الرجـل الطعـام، ويلبس الثوب، ويسكن الدار، ونحو ذلك من المحبوبات التي لا إرادة لها.

وأما «الحيوان» فيحب بعضه بعضاً بكونه سبباً للإحسان إليه وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها، لكن هذا في الحقيقة إنما هو محبة الإحسان، لا نفس المحسن، ولو قطع ذلك لاضمحل ذلك الحب وربما أعقب بغضاً، فإنه ليس لله عز وجل.

فإن من أحب إنساناً لكونه يعطيه، فما أحب إلا العطاء، ومن قال: إنه يحب من يعطيه لله فهذا كذب ومحال وزور من القول، وكذلك من أحب إنساناً لكونه ينصره إنما أحب النصر لا الناصر، وهذا كله من اتبـاع ما تهوى الأنفس، فإنه لم يحب في الحقيقة إلا ما يصل إليه من جـلب منفعة

أو دفع مضرة، فهو إنما أحب تلك المنفعة ودفع المضرة وإنما أحب ذلك لكونه وسيلة إلى محبوبه، وليس هذا حباً لله ولا لذات المحبوب.

وعلى هذا تجري عامة محبة الخلق بعضهم مع بعض، وهذا لا يثابون عليه في الآخرة ولا ينفعهم، بل ربما أدى ذلك إلى النفاق والمداهنة، فكانوا في الآخرة من الأخلاء الذين بعضهم لبعض عدو إلا المتقين. وإنما ينفعهم في الآخرة الحب في الله ولله وحده، وأما من يرجو النفع والنصر من شخص، ثم يزعم أنه يحبه لله فهذا من دسائس النفوس ونفاق الأقوال.

وإنما ينفع العبد الحب لله لما يحبه الله من خلقه كالأنبياء والصالحين لكون حبهم يقرب إلى الله ومحبته وهؤلاء هم الذين يستحقون محبة الله لهم.

ونبينا كان يعطي المؤلفة قلوبهم ويدع آخرين هم أحب إليه من الذي يعطي، يكلهم إلى ما في قلوبهم من الإيمان. وإنما كان يعطي المؤلفة قلوبهم لما في قلوبهم من الهلع والجزع، ليكون ما يعطيهم سبباً لجلب قلوبهم إلى أن يحبوا الإسلام فيحبوا الله، فكان مقصوده بذلك دعوة القلوب إلى حب الله عز وجل وصرفها عن ضد ذلك، ولهذا كان يعطي أقواماً خشية أن يكبهم[1] الله على وجوههم في النار فمنعهم بذلك العطاء عما يكرهه منهم فكان يعطي لله ويمنع لله. وقد قال: ﴿من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان﴾[2]، وفي صحيح البخاري عنه صلى الله

---

(١) يكبهم: أي يقلبهم [انظر لسان العرب، ج ١ ص ٦٩٥].

(٢) الحديث رواه: أبو داود في كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، ج ٥ ص ٦٠؛ والترمذي في أبواب صفة القيامة، ج ٤ ص ٧٨ وقال هذا حديث منكر حسن؛ وأحمد في مسنده، ج ٣ ص ٤٣٨/٤٣٩/٤٤٠.

عليه وسلم أنه قال: «إني والله إنما أنا قاسم لا أعطي أحداً ولا أمنع أحداً ولكن أضع حيث أمرت»[1].

[سيطرة المحبوب على المحب:]

وصورة المحبوب المتمثلة في النفس يتحرك لها المحب ويريد لها ويحب ويبغض ويبتهج وينشرح عند ذكرها من أي جنس كانت، فتبقى هي كالآمر الناهي له: ولهذا يجد في نفسه كأنها تخاطبه بأمر ونهي وغير ذلك كما يرى كثير من الناس من يحبه ويعظمه في منامه وهو يأمره وينهاه ويخبره بأمور.

[تدليس إبليس على المحبين:]

والمشركون تتمثل لهم الشياطين في صور من يعبدونه، تـأمرهم وتنهاهم.

والقائلون بالشاهد والمنتسبون إلى السلوك يقول أحدهم: إنه يخاطب في باطنه على لسان الشاهد، فمنهم من يصلي بالليل وذاك بإزائه ليشاهده في الضوء، ومنهم من يشاهده في حال السماع في غيره، ويظنون أنهم يخاطبون ويجدون المريد في قلوبهم بذلك، وذلك لأنهم يتمثلونه في أنفسهم، وربما كان الشيطان يتمثل في صورته فيجدون في نفوسهم خطاباً من تلك الصورة فيقولون خوطبنا من جهته. وهذا وإن كان موجوداً في المخاطب فمن المخاطب له؟ فالفرقان هنا. فإنما ذلك المخاطب من وسواس الشيطان والنفس.

وقد يخاطبون بأشياء حسنة رشوة منه لهم، ولا يخاطبون بما يعرفون

---

(١) رواه البخاري مختصراً في كتاب فرض الخمس، باب قوله تعالى: ﴿فإن لله خمسه وللرسول﴾ ج ٦ ص ٢١٧.
ورواه أحمد في مسنده، ج ٢ ص ٤٨٢ مع اختلاف يسير في اللفظ.

أنه باطل، لئلا ينفرون منه، بل الشيطان يخاطب أحدهم بما يرى أنه حق، والراهب إذا راض نفسه فمرة يرى في نفسه صورة التثليث، وربما خوطب منها لأنه كان قد يتمثلها قبل ذلك، فلما انصقلت نفسه بالرياضة ظهرت له، والمؤمن الذي يحب الله ورسوله يرى الرسول في منامه بحسب إيمانه، وكذلك يرى الله تعالى في منامه بحسب إيمانه، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

ولهذا كثير من أهل الزهد والعبادة يكون من أعوان الكفار ويزعم أنه مأمور بذلك، ويخاطب به ويظن أن الله هو الذي أمره بذلك، والله منزه عن ذلك، وإنما الآمر له بذلك النفس والشيطان وما في نفسه من الشرك، إذ لو كان مخلصاً لله الدين لما عرض له شيء من ذلك، فإن هذا لا يكون إلا لمن فيه شرك في عبادته، أو عنده بدعة، ولا يقع هذا لمخلص متمسك بالسنة البتة.

وإذا كانت «الرؤيا» على «ثلاثة أقسام»:

رؤيا من الله.
ورؤيا من حديث النفس.
ورؤيا من الشيطان.

فكذلك ما يلقى في نفس الإنسان في حال يقظته «ثلاثة أقسام».

ولهذا كانت الأحوال «ثلاثة» رحماني، ونفساني، وشيطاني.

وما يحصل من نوع المكاشفة والتصرف «ثلاثة أصناف» ملكي ونفسي، وشيطاني، فإن الملك له قوة، والنفس لها قوة، والشيطان له قوة، وقلب المؤمن له قوة. فما كان من الملك ومن قلب المؤمن فهو حق، وما كان من الشيطان ووسوسة النفس فهو باطل.

وقد اشتبه هذا بهذا على طوائف كثيرة، فلم يفرقوا بين أولياء الله

وأعداء الله، بل صاروا يظنون في من هو من جنس المشركين والكفار ـ أهل الكتاب من وجوه كثيرة ـ أنه من أولياء الله المتقين. والكلام في هذا مبسوط في موضع آخر[1].

ولهذا في هؤلاء من يرى جواز قتال الأنبياء، ومنهم من يرى أنه أفضل من الأنبياء، إلى أنواع أخر. وذلك لأنه حصل لهم من الأنواع الشيطانية والنفسانية ما ظنوا أنها من كرامات الأولياء، فظنوا أنهم منهم، فكان الأمر بالعكس. وأصل هذا أنهم تعبدوا بما تحبه النفس؛ وأما العبادة بما يحبه الله ويرضاه فلا يحبونه ولا يريدونه وحده، ويرون أنهم إذا عبدوا الله بما أمر به ورسله حط لهم عن منصب الولاية، فيحدثون محبة قوية وتألهاً وعبادة وشوقاً وزهداً؛ ولكن فيه شرك وبدعة.

ومحبة «التوحيد» إنما تكون لله وحده على متابعة رسوله؛ كما قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾[2]؛ فلهذا يكون أهل الاتباع فيهم جهاد ونية في محبتهم؛ يحبون لله، ويبغضون له. وهم على ملة إبراهيم. والذين معه ﴿إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم، ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم. وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾[3] وأولئك محبتهم فيها شرك وليسوا متابعين للرسول، ولا مجاهدين في سبيل الله، فليست هي المحبة الإخلاصية. فإنها مقرونة بالتوحيد. ولهذا سمى أبو طالب المكي كتابه «قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد».

والله سبحانه أعلم.

---

(١) يعني رسالته المسماة الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

(٢) الآية ٣١ من سورة آل عمران.

(٣) الآية ٤ من سورة الممتحنة.

[الـزهــد والــورع:]

قال شيخ الإسلام، رَحِمَهُ الله:

قد كتبت في كراسة الحوادث فصلاً في «جماع الزهد والورع»:

وأن «الزهد» هو عما لا ينفع إما لانتفاء نفعه، أو لكونه مرجوحاً؛ لأنه مفوت لما هو أنفع منه، أو محصل لما يربو ضرره على نفعه. وأما المنافع الخالصة أو الراجحة: فالزهد فيها حمق.

وأما «الورع» فإنه الإمساك عما قد يضر، فتدخل فيه المحرمات والشبهات لأنها قد تضر. فإنه من اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي حول الحمى يوشك أن يواقعه.

وأما «الورع» عما لا مضرة فيه أو فيه مضرة مرجوحة ـ لما تقترن به من جلب منفعة راجحة، أو دفع مضرة أخرى راجحة ـ فجهل وظلم. وذلك يتضمن «ثلاثة أقسام» لا يتورع عنها: المنافع المكافأة، والراجحة والخالصة: كالمباح المحض، أو المستحب، أو الواجب فإن الورع عنها ضلالة.

وأنا أذكر هنا تفصيل ذلك فأقول:

«الزهد» خلاف الرغبة. يقال: فلان زاهد في كذا. وفلان راغب فيه. و«الرغبة» هي من جنس الإرادة. فالزهد في الشيء انتفاء الإرادة له، إما مع وجود كراهته وإما مع عدم الإرادة والكراهة، بحيث لا يكون لا مريداً له ولا كارهاً له، وكل من لم يرغب في الشيء ويريده فهو زاهد فيه.

وكما أن سبيل الله يحمد فيه الزهد فيما زهد الله فيه من فضول الدنيا فتحمد فيه الرغبة والإرادة لما حمد الله إرادته والرغبة فيه؛ ولهذا كان أساس الطريق الإرادة. كما قال تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة

والعشي يريدون وجهه﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾[2] ونظائره متعددة.

[الزهد بين الذم والمدح:]

كما رغب في «الزهد» وذم ضده في قوله: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ألهٰكم التكاثر﴾[4] السورة. وقال تعالى: ﴿وتأكلون التراث أكلاً لماً وتحبون المال حباً جماً﴾[5]، وقال: ﴿إن الإنسان لربه لكنود، وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد﴾[6]، وقال تعالى: ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم﴾[7] الآية. وهذا باب واسع.

وإنما المقصود هنا تميز «الزهد الشرعي» من غيره، وهو الزهد المحمود، وتميز «الرغبة الشرعية» من غيرها، وهي الرغبة المحمودة، فإنه كثيراً ما يشتبه الزهد بالكسل والعجز والبطالة عن الأوامر الشرعية وكثيراً ما تشتبه الرغبة الشرعية بالحرص والطمع والعمل الذي ضل سعي صاحبه.

وأما «الورع» فهو اجتناب الفعل واتقاؤه، والكف والإمساك عنه

---

(١) الآية ٥٢ من سورة الأنعام.
(٢) الآية ١٩ من سورة الإسراء.
(٣) الآية ١٥ من سورة هود.
(٤) الآية ١ من سورة التكاثر.
(٥) الآيتان ١٩ ــ ٢٠ من سورة الفجر.
(٦) الآيات ٦ ــ ٨ من سورة العاديات.
(٧) الآية ٢٠ من سورة الحديد.

والحذر منه، وهو يعود إلى كراهة الأمر والنفرة منه والبغض له وهو أمر وجودي أيضاً ــ وإن كان قد اختلف في المطلوب بالنهي. هل هو عدم المنهي عنه، أو فعل ضده؟ وأكثر أهل الإثبات على الثاني ــ فلا ريب أنه لا يسمى ورعاً، ومتورعاً، ومتقياً، إلا إذا وجد منه الامتناع والإمساك الذي هو فعل ضد المنهي عنه.

و «التحقيق» أنه مع عدم المنهي عنه يحصل له عدم مضرة الفعل المنهي عنه، وهو ذمه وعقابه ونحو ذلك، ومع وجود الامتناع والاتقاء والاجتناب يكون قد وجد منه عمل صالح وطاعة وتقوى، فيحصل له منفعة هذا العمل، من حمده وثوابه، وغير ذلك. فعدم المضرة لعدم السيئات، ووجود المنفعة لوجود الحسنات.

[الفرق بين الزهد والورع:]

فتلخص أن «الزهد» من باب عدم الرغبة والإرادة في المزهود فيه. و «الورع» من باب وجود النفرة والكراهة للمتورع عنه، وانتفاء الإرادة إنما يصلح فيما ليس فيه منفعة خالصة أو راجحة، وأما وجود الكراهة فإنما يصلح فيما فيه مضرة خالصة أو راجحة، فأما إذا فرض ما لا منفعة فيه ولا مضرة، أو منفعته ومضرته سواء من كل وجه؛ فهذا لا يصلح أن يراد، ولا يصلح أن يكره، فيصلح فيه الزهد، ولا يصلح فيه الورع، فظهر بذلك أن كل ما يصلح فيه الورع يصلح فيه الزهد، من غير عكس، وهذا بين. فإن ما صلح أن يكره وينفر عنه صلح أن لا يراد ولا يرغب فيه، فإن عدم الإرادة أولى من وجود الكراهة؛ ووجود الكراهة مستلزم عدم الإرادة من غير عكس. وليس كل ما صلح أن لا يراد يصلح أن يكره؛ بل قد يعرض من الأمور ما لا تصلح إرادته ولا كراهته، ولا حبه ولا بغضه ولا الأمر به، ولا النهي عنه.

وبهذا يتبين: أن الواجبات والمستحبات لا يصلح فيها زهد ولا ورع؛

وأما المحرمات والمكروهات فيصلح فيها الزهد والورع. وأما المباحات فيصلح فيها الزهد دون الورع، وهذا القدر ظاهر تعرفه بأدنى تأمل.

وإنما الشأن فيما إذا تعارض في الفعل. هل هو مأمور به؟ أو منهي عنه؟ أو مباح؟ وفيما إذا اقترن بما جنسه مباح ما يجعله مأموراً به أو منهياً عنه، أو اقترن بالمأمور به ما يجعله منهياً عنه وبالعكس.

فعند اجتماع المصالح والمفاسد والمنافع والمضار وتعارضها؛ يحتاج إلى الفرقان.

[هل الثواب على قدر المشقة؟ :]

وقـــال:

قول بعض الناس: الثواب على قدر المشقة ليس بمستقيم على الإطلاق، كما قد يستدل به طوائف على أنواع من «الرهبانيات، والعبادات المبتدعة» التي لم يشرعها الله ورسوله من جنس تحريمات المشركين وغيرهم ما أحل الله من الطيبات، ومثل التعمق والتنطع[1] الذي ذمه النبي صلى الله عليه وسلم ـ حيث قال: «هلك المتنطعون»[2]؛ وقال: «لو مد لي الشهر لواصلت وصالاً يدع المتعمقون تعمقهم»[3] ـ مثل الجوع أو العطش

---

(١) التنطع: التعمق [مختار الصحاح، ص ٦٦٦].
وهو هنا بمعنى المغالاة والمبالغة المخالفة للسُّنّة.

(٢) الحديث رواه: مسلم في كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، ج ٤ ص ٢٠٥٥؛ وأبو داود في كتاب السنة، باب لزوم السنة، ج ٥ ص ١٥؛ والإمام أحمد في مسنده، ج ١ ص ٣٨٦.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التمني، باب ما يجوز من اللوِّ وقوله تعالى: ﴿ولو أن لي بكم قوة﴾ ج ١٣ ص ٢٢٥ وزاد: «إني أظل يطعمني ربي ويسقيني». وأخرجه مسلم في كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم، ج ٢ ص ٧٧٥/٧٧٦. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده، ج ٣ ص ١٩٣.

المفرط الذي يضر العقل والجسم، ويمنع أداء واجبات أو مستحبات أنفع منه، وكذلك الاحتفاء والتعري والمشي الذي يضر الإنسان بلا فائدة: مثل حديث أبي إسرائيل الذي نذر أن يصوم وأن يقوم قائماً ولا يجلس ولا يستظل ولا يتكلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه»[1]. رواه البخاري، وهذا باب واسع.

وأما الأجر على قدر الطاعة فقد تكون الطاعة لله ورسوله في عمل ميسر كما يسر الله على أهل الإسلام «الكلمتين» وهما أفضل الأعمال؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[2]. أخرجاه في الصحيحين.

ولو قيل الأجر على قدر منفعة العمل وفائدته لكان صحيحاً اتصاف «الأول» باعتبار تعلقه بالأمر و«الثاني» باعتبار صفته في نفسه. والعمل تكون منفعته وفائدته تارة من جهة الأمر فقط، وتارة من جهة صفته في نفسه، وتارة من كلا الأمرين. فبالاعتبار الأول ينقسم إلى طاعة ومعصية،

---

(١) الحديث رواه: البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية ولفظه: «مره فليتكلم وليستظلّ وليقعد وليتمّ صومه» ج ١١ ص ٥٨٦؛ وأبو داود في كتاب الأيمان والنذور، باب من رأى عليه كفارة إذا كان في معصية، ج ٣ ص ٥٩٩/٦٠٠؛ وابن ماجه في كتاب الكفارات، باب من خلط في نذره طاعة بمعصية؛ ومالك في الموطأ في كتاب الأيمان والنذور، باب ما لا يجوز من النذور في معصية الله، ج ٢ ص ٤٧٥؛ وأحمد في مسنده، ج ٤ ص ١٦٨.

(٢) الحديث رواه: البخاري في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾ ج ١٣ ص ٥٣٧؛ ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، ج ٤ ص ٢٠٧٢؛ والترمذي في أبواب الدعوات، ج ٥ ص ١٧٤/١٧٥؛ وابن ماجه في كتاب الأدب، باب فضل التسبيح، ج ٢ ص ١٢٥١؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٢٣٢.

وبالثاني ينقسم إلى حسنة وسيئة، والطاعة والمعصية اسم له من جهة الأمر، والحسنة والسيئة اسم له من جهة نفسه[1] وإن كان كثير من الناس لا يثبت إلا «الأول»، كما تقوله الأشعرية وطائفة من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم.

ومن الناس من لا يثبت إلا «الثاني» كما تقوله المعتزلة وطائفة من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم، والصواب إثبات الاعتبارين كما تدل عليه نصوص الأئمة وكلام السلف وجمهور العلماء من أصحابنا وغيرهم.

فأما كونه مشقاً، فليس هو سبباً لفضل العمل ورجحانه، ولكن قد يكون العمل الفاضل مشقاً ففضله لمعنى غير مشقته، والصبر عليه مع المشقة يزيد ثوابه وأجره، فيزداد الثواب بالمشقة، كما أن من كان بعده عن البيت في الحج والعمرة أكثر: يكون أجره أعظم من القريب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة في العمرة: «أجرك على قدر نصبك»[2] لأن الأجر على قدر العمل في بعد المسافة، وبالبعد يكثر النصب فيكثر الأجر، وكذلك الجهاد، وقوله صلى الله عليه وسلم: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأه ويتتعتع فيه، وهو عليه شاق له أجران»[3].

---

(١) خرم بالأصل مقدار ثلث سطر «من هامش مجموع الفتاوى، ج ١٠ ص ٦٢١».

(٢) الحديث رواه: البخاري في كتاب العمرة، باب أجر العمرة على قدر النصب، ج ٣ ص ٦١٠؛ ومسلم في كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام، ج ٢ ص ٨٧٧؛ وأحمد في مسنده، ج ٦ ص ٤٣.

(٣) الحديث رواه: البخاري في كتاب التفسير، باب تفسير سورة (٨٠) مع اختلاف في اللفظ؛ ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه، ج ١ ص ٥٥٠؛ وأبو داود في كتاب الصلاة، باب في ثواب قراءة القرآن، ج ٢ ص ١٤٨؛ والترمذي في أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل قارىء القرآن، ج ٤ ص ٣٤٤؛ وابن ماجه في كتاب الأدب، باب ثواب القرآن، ج ٢ ص ١٢٤٢؛ والدارمي في كتاب فضائل القرآن، باب فضل من يقرأ القرآن ويشتد عليه، ج ٢ ص ٤٤٤؛ وأحمد في مسنده، ج ٦ ص ٤٨.

فكثيراً ما يكثر الثواب على قدر المشقة والتعب، لا لأن التعب والمشقة مقصود من العمل؛ ولكن لأن العمل مستلزم للمشقة والتعب، هذا في شرعنا الذي رفعت عنا فيه الآصار والأغلال، ولم يجعل علينا فيه حرج، ولا أريد بنا فيه العسر؛ وأما في شرع من قبلنا فقد تكون المشقة مطلوبة منهم. وكثير من العباد يرى جنس المشقة والألم والتعب مطلوباً مقرباً إلى الله؛ لما فيه من نفرة النفس عن اللذات والركون إلى الدنيا وانقطاع القلب عن علاقة الجسد، وهذا من جنس زهد الصابئة والهند وغيرهم.

ولهذا تجد هؤلاء مع من شابههم من الرهبان يعالجون الأعمال الشاقة الشديدة المتعبة من أنواع العبادات والزهادات، مع أنه لا فائـدة فيها ولا ثمرة لها ولا منفعة إلا أن يكون شيئاً يسيراً لا يقاوم العذاب الأليم الذي يجدونه.

ونظير هذا الأصل الفاسد مدح بعض الجهال بأن يقول: فلان ما نكح ولا ذبح. وهذا مدح الرهبان الذين لا ينكحون ولا يذبحون، وأما الحنفاء، فقد قال النبـي صلى الله عليه وسلم: «لكني أصوم وأفطر وأتزوج النساء وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

وهذه الأشياء هي من الدين الفاسد وهو مذموم كما أن الطمأنينة إلى الحياة الدنيا مذموم.

---

(١) الحديث أخرجه: البخاري في كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ج ٩ ص ١٠٤؛ ومسلم في كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، ج ٢ ص ١٠٢٠؛ والنسائي في كتاب النكاح، باب النهي عن التبتـل، ج ٦ ص ٦٠؛ والدارمي في كتاب النكاح، باب النهي عن التبتل، ج ٢ ص ١٣٣؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ١٥٨.

[أقسام الناس:]

والناس أقسام:

أصحاب «دنيا محضة»، وهم المعرضون عن الآخرة.

وأصحاب «دين فاسد»، وهم الكفار والمبتدعة الذين يتدينون بما لم يشرعه الله من أنواع العبادات والزهادات.

و«القسم الثالث» وهم أهل الدين الصحيح، أهل الإسلام المستمسكون بالكتاب والسنة والجماعة، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

***



الفَصْلُ الثَّانِي

[تزكية النفس وكيف تزكو:]

وَقَال شيخ الإسلام أحمد بن تيميَّة رحمه الله تعالى:

فصل: في «تزكية النفس» وكيف تزكو بترك المحرمات مع فعل المأمورات. قال تعالى: ﴿قد أفلح من زكاها﴾[1]، و﴿قد أفلح من تزكى﴾[2].

[معنى التزكية:]

قال قتادة وابن عيينة وغيرهما: قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال. وقال الفراء والزجاج: قد أفلحت نفس زكاها الله وقد خابت نفس دساها الله. وكذلك ذكره الوالبي عن ابن عباس وهو منقطع. و[ليس] هو مراد من الآية، بل المراد بها الأول قطعاً لفظاً ومعنى.

أما «اللفظ» فقوله: من زكاها اسم موصول ولا بد فيه من عائد على (من) فإذا قيل: قد أفلح الشخص الذي زكاها كان ضمير الشخص في زكاها يعود على (من) هذا وجه الكلام الذي لا ريب في صحته كما يقال: قد أفلح من اتقى الله وقد أفلح من أطاع ربه.

وأما إذا كان المعنى: قد أفلح من زكاه الله لم يبق في الجملة ضمير

(١) الآية ٩ من سورة الشمس.

(٢) الآية ١٤ من سورة الأعلى.

يعود على (من) فإن الضمير على هذا يعود على الله وليس هو (من) وضمير المفعول يعود على النفس المتقدمة فلا يعود على (من) لا ضمير الفاعل ولا المفعول. فتخلو الصلة من عائد وهذا لا يجوز.

نعم، لو قيل: قد أفلح من زكى الله نفسه أو من زكاها الله له ونحو ذلك صح الكلام، وخفاء هذا على من قال به من النحـاة عجب. وهو لم يقل: قد أفلحت نفس زكاها. فإنه هنا كانت تكون زكاها صفة لنفس لا صلة، بل قال: ﴿قد أفلح من زكاها﴾[1] فالجملة صلة لـ (من) لا صفة لها.

ولا قال أيضاً: قد أفلحت النفس التي زكاها، فإنه لو قيل ذلك وجعل في (زكاها) ضمير يعود على اسم الله صح، فإذا تكلفوا وقالوا: التقدير ﴿قد أفلح من زكاها) هي النفس التي زكاها. وقالوا: في زكى ضمير المفعول يعود على (من) وهي تصلح للمذكر والمؤنث والـواحد والعدد، فالضمير عائد على معناها المؤنث وتأنيثها غير حقيقي ولهذا قيل: (قد أفلح) ولم يقل قد أفلحت، قيل لهم، هذا مع أنه خروج من اللغة الفصيحة فإنما يصح إذا دل الكلام على ذلك في مثل ومن[2] على أن المراد لنا، وكذا قوله: ﴿ومنهم من يستمعون إليك﴾[3] ونحو ذلك.

وأما هنا فليس في لفظ (من) وما بعدها ما يدل على أن المراد به النفس المؤنثة فلا يجوز أن يراد بالكلام ما ليس فيه دليل على إرادته؛ فإن مثل هذا مما يصان كلام الله عز وجل عنه، فلو قدر احتمال عود ضمير (زكاها) إلى نفس وإلى (من) مع أن لفظ (من) لا دليل يوجب عوده عليه لكان إعادته إلى المؤنث أولى من إعادته إلى ما يحتمل التذكير والتأنيث،

---

(١) الآية ٩ من سورة الشمس.

(٢) بياض بالأصل «من هامش مجموع الفتاوى، ج ١٠ ص ٦٢٧».

(٣) الآية ٤٢ من سورة يونس.

وهو في التذكير أظهر، لعدم دلالته على التأنيث، فإن الكلام إذا احتمل معنيين وجب حمله على أظهرهما، ومن تكلف غير ذلك فقد خرج عن كلام العرب المعروف، والقرآن منزه عن ذلك، والعدول عما يدل عليه ظاهر الكلام إلى ما لا يدل عليه بلا دليل لا يجوز البتة فكيف إذا كان نصاً من جهة المعنى؟! فقد أخبر الله أنه يلهم التقوى والفجور. ولبسط هذا موضع آخر.

[التزكية في الكتاب السنة:]

و (المقصود هنا) أمر الناس بتزكية أنفسهم والتحذير من تدسيتها. كقوله: ﴿قد أفلح من تزكى﴾[1]، فلو قدر أن المعنى قد أفلح من زكى الله نفسه لم يكن فيه أمر لهم ولا نهي، ولا ترغيب ولا ترهيب. والقرآن إذا أمر أو نهى لا يذكر مجرد «القدر» فلا يقول: من جعله الله مؤمناً؛ بل يقول: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾[2] ﴿قد أفلح من تزكى﴾، إذ ذكر مجرد القدر في هذا يناقض المقصود، ولا يليق هذا بأضعف الناس عقلاً فكيف بكلام الله؟! ألا ترى أنه في مقام الأمر والنهي والترغيب والترهيب يذكر ما يناسبه من الوعد والوعيد، والمدح والذم، وإنما يذكر القدر عند بيان نعمه عليهم: إما بما ليس من أفعالهم، وإما بإنعامه بالإيمان والعمل الصالح، ويذكره في سياق قدرته ومشيئته، وأما في معرض الأمر فلا يذكره إلا عند النعم. كقوله: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى﴾[3] الآية، فهذا مناسب. وقوله: ﴿قد أفلح من تزكى﴾ وهذه الآية من جنس الثانية لا الأولى.

والمقصود «ذكر التزكية» قال تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا﴾[4]

---

(١) الآية ١٤ من سورة الأعلى.
(٢) الآية ١ من سورة (المؤمنون).
(٣) الآية ٢١ من سورة النور.
(٤) الآية ٣٠ من سورة النور.

الآية. وقال: ﴿فارجعوا هو أزكى لكم﴾[١]، وقال: ﴿الذين لا يؤتون الزكاة﴾[٢]، وقال: ﴿وما عليك ألا يزكى﴾[٣].

وأصل «الزكاة» الزيادة في الخير. ومنه يقال: زكا الزرع، وزكا المال إذا نما. ولن ينمو الخير إلا بترك الشر، والزرع لا يزكو حتى يزال عنه الدغل[٤]، فكذلك النفس والأعمال لا تزكو حتى يزال عنها ما يناقضها ولا يكون الرجل متزكياً إلا مع ترك الشر، فإنه يدنس النفس ويدسيها. قال الزجاج: (دساها) جعلها ذليلة حقيرة خسيسة وقال الفراء: دساها، لأن البخيل يخفي نفسه ومنزله وماله، قال ابن قتيبة: أي أخفاها بالفجور والمعصية، فالفاجر دس نفسه، أي قمعها وخباها، وصانع المعروف شهر نفسه ورفعها، وكانت أجواد العرب تنزل الربى لتشهر أنفسها، واللئام تنزل الأطراف والوديان.

فالبر والتقوى يبسط النفس. ويشرح الصدر، بحيث يجد الإنسان في نفسه اتساعاً وبسطاً عما كان عليه قبل ذلك؛ فإنه لما اتسع بالبر والتقوى والإحسان بسطه الله وشرح صدره. والفجور والبخل يقمع النفس ويضعها ويهينها. بحيث يجد البخيل في نفسه أنه ضيق. وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في الحديث الصحيح فقال: «مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد قد اضطرت أيديهما إلى تراقيهما[٥]. فجعل المتصدق كلما هم بصدقة اتسعت وانبسطت عنه، حتى تغشى أنامله[٦].

---

(١) الآية ٢٨ من سورة النور.
(٢) الآية ٧ من سورة فصلت.
(٣) الآية ٧ من سورة عبس.
(٤) الدغل: الفساد كذلك يطلق الدغل على الشجر الكثيف الملتف [انظر لسان العرب، ج ١١ ص ٢٤٤].
(٥) قدَ اضطرت أيديهما إلى تراقيهما: أي أُلجِئَتْ إليها ولصقت بها كأنها مغلولة إلى أعناقها.
(٦) تغشى أنامله: أي تغطيها وتسترها.

وتعفو أثره وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة بمكانها، وأنا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول باصبعه في جيبه فلو رأيتها يوسعها فلا تتسع»[1] أخرجاه.

وإخفاء المنزل وإظهاره تبعاً لذلك قال تعالى: ﴿يتوارى من القوم من سوء ما بشر به﴾[2] الآية. فهكذا النفس البخيلة الفاجرة قد دسها صاحبها في بدنه بعضها في بعض، ولهذا وقت الموت تنزع من بدنه كما ينزع السفود[3] من الصوف المبتل، والنفس البرة التقية النقية التي قد زكاها صاحبها فارتفعت واتسعت ومجدت ونبلت فوقت الموت تخرج من البدن تسيل كالقطرة من فيّ السقاء، وكالشعرة من العجين. قال ابن عباس: «إن للحسنة لنوراً في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة لظلمة في القلب، وسواداً في الوجه، ووهنا في البدن، وضيقاً في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق» قال تعالى: ﴿والبلد الطيب﴾[4] الآية. وهذا مثل البخيل والمنفق. قال: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره﴾[5] الآية. وقال: ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾[6] الآية.

---

(١) الحديث رواه: البخاري في كتاب الجهاد، باب ما قيل في درع النبي صلى الله عليه وسلم، ج ٦ ص ٩٩؛ ومسلم في كتاب الزكاة، باب مثل المنفق والبخيل، ج ٢ ص ٧٠٨/٧٠٩؛ والنسائي في كتاب الزكاة، باب صدقة البخيل، ج ٥ ص ٧٠/٧١؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٣٨٩.
وهذا الحديث ورد بلفظ جنتان وبلفظ جبتان، بالنون والباء، والصواب جنتان بالنون وهما الدرعان ويؤيده وصفهما بأنهما من حديد، ومعنى الحديث: أن بخل البخيل يغل يده ويقيدها في الدنيا والآخرة وأنه يحاول أن يوسع درعه عن يده المغلولة إلى عنقه فلا تتسع الدرع. وصدقة المتصدق تطلعها.

(٢) الآية ٥٩ من سورة النحل.

(٣) السفود: حديدة ذات شعب [لسان العرب، ج ٣ ص ٢١٨].

(٤) الآية ٥٨ من سورة الأعراف.

(٥) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام.

(٦) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة.

وقال له في سياق الرمي بالفاحشة وذم من أحب إظهارها في المؤمنين، والمتكلم بما لا يعلم: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾[1] الآية. فبين أن الزكاة إنما تحصل بترك الفاحشة ولهذا قال: ﴿قل للمؤمنين: يغضوا من أبصارهم﴾[2] الآية. وذلك أن ترك السيئات هو من أعمال النفس، فإنها تعلم أن السيئات مذمومة ومكروه فعلها، ويجاهد نفسه إذا دعته إليها، إن كان مصدقاً لكتاب ربه مؤمناً بما جاء عن نبيه صلى الله عليه وسلم؛ ولهذا التصديق والإيمان والكراهة وجهاد النفس أعمال تعملها النفس المزكاة، فتزكو بذلك أيضاً، بخلاف ما إذا عملت السيئات فإنها تتدنس وتندس وتنقمع كالزرع إذا نبت معه الدغل.

والثواب إنما يكون على عمل موجود، وكذلك العقاب، فأما العدم المحض فلا ثواب فيه ولا عقاب، لكن فيه عدم الثواب والعقاب، والله سبحانه أمر بالخير ونهى عن الشر، واتفق الناس على أن المطلوب بالأمر فعل موجود، واختلفوا في النهي هل المطلوب أمر وجودي، أم عدمي فقيل: وجودي، وهو الترك، وهذا قول الأكثر. وقيل: المطلوب عدم الشر، وهو أن لا يفعله.

و«التحقيق» أن المؤمن إذا نهى عن المنكر، فلا بد أن لا يقربه ويعزم على تركه، ويكره فعله، وهذا أمر وجودي بلا ريب، فلا يتصور أن المؤمن الذي يعلم أنه[3] وجودي، لكن قد لا يكون مريداً له كما يكره أكل الميتة طبعاً. ومع ذلك فلا بد له من اعتقاد التحريم والعزم على تركه لطاعة الشارع، وهذا قدر زائد على كراهة الطبع، وهو أمر وجودي يثاب عليه،

---

(١) الآية ٢١ من سورة النور.

(٢) الآية ٣٠ من سورة النور.

(٣) بياض بالأصل «من هامش مجموع الفتاوى، ج ١٠ ص ٦٣١».

ولكن ليس كثواب من كف نفسه وجاهدها عن طلب المحرم، ومن كانت كراهته للمحرمات كراهة إيمان، وقد غمر إيمانه حكم طبعه، فهذا أعلى الأقسام الثلاثة، وهذا صاحب النفس المطمئنة، وهو أرفع من صاحب اللوامة التي تفعل الذنب وتلوم صاحبها عليه، وتتلوم وتتردد هل تفعله أم لا؟!

وأما من لم يخطر بباله أن الله حرمه، ولا هو مريد له: بل لم يفعله، فهذا لا يعاقب، ولا يثاب، إذ لم يحصل منه أمر وجودي يثاب عليه أو يعاقب فمن قال: المطلوب أن لا يفعل، إن أراد أن هذا المطلوب يكفي في عدم العقاب، فقد صدق، وإن أراد أنه يثاب على هذا العدم فليس كذلك. والكافر إذا لم يؤمن بالله ورسوله فلا بد لنفسه من أعمال يشتغل بها عن الإيمان، وترك الأعمال كفر يعاقب عليها.

ولهذا لما ذكر الله عقوبة الكفار في النار، ذكر أموراً وجودية وتلك تدس النفس؛ ولهذا كان التوحيد والإيمان أعظم ما تزكو به النفس، وكان الشرك أعظم ما يدسيها، وتتزكى بالأعمال الصالحة والصدقة هذا كله مما ذكره السلف. قالوا: في ﴿قد أفلح من تزكى﴾[1] تطهر من الشرك ومن المعصية بالتوبة، وعن أبي سعيد وعطاء وقتادة: صدقة الفطر. ولم يريدوا أن الآية لم تتناول إلا هي، بل مقصودهم: أن من أعطى صدقة الفطر وصلى صلاة العيد فقد تناولته وما بعدها، ولهذا كان يزيد بن حبيب كلما خرج إلى الصلاة خرج بصدقة، ويتصدق بها قبل الصلاة، ولو لم يجد إلا بصلاً. قال الحسن: ﴿قد أفلح من تزكى﴾[2] من كان عمله زاكياً، وقال أبو الأحوص: زكاة الأمور كلها، وقال الزجاج: تزكى بطاعة الله عز وجل، ومعنى الزاكي النامي الكثير.

---

(١) الآية ١٤ من سورة الأعلى.

(٢) الآية ١٤ من سورة الأعلى.

وكذلك قالوا في قوله: ﴿وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة﴾[1]، قال ابن عباس: لا يشهدون أن لا إله إلا الله، وقال مجاهد: لا يزكون أعمالهم أي ليست زاكية، وقيل لا يطهرونها بالإخلاص، كأنه أراد ـ والله أعلم ـ أهل الرياء، فإنه شرك. وعن الحسن: لا يؤمنون بالزكاة، ولا يقرون بها. وعن الضحاك: لا يتصدقون، ولا ينفقون في الطاعة، وعن ابن السائب: لا يعطون زكاة أموالهم، قال: كانوا يحجون ويعتمرون ولا يزكون.

و «التحقيق» أن الآية تتناول كل ما يتزكى به الإنسان من التوحيد والأعمال الصالحة. كقوله: ﴿هل لك إلى أن تزكي﴾[2]، وقوله: ﴿قد أفلح من تزكى﴾، والصدقة المفروضة لم تكن فرضت عند نزولها.

فإن قيل: (يؤتى) فعل متعد.

قيل: هذا كقوله: ﴿ثم سئلوا الفتنة لأتوها﴾[3]، وتقدم قبلها أن الرسول دعاهم، وهو طلب منه، فكان هذا اللفظ، متضمناً قيام الحجة عليهم بالرسل، والرسل إنما يدعونهم لما تزكو به أنفسهم.

ومما يليق: أن الزكاة تستلزم الطهارة؛ لأن معناها معنى الطهارة. قوله: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم﴾[4]، من الشر ﴿وتزكيهم﴾[5] بالخير، قال صلى الله عليه وسلم: «اللهم طهرني بالماء والبرد والثلج»[6]،

---

(١) الآيتان ٦ ـ ٧ من سورة فصلت.
(٢) الآية ١٨ من سورة النازعات.
(٣) الآية ١٤ من سورة الأحزاب.
(٤) الآية ١٠٣ من سورة التوبة.
(٥) الآية السابقة.
(٦) الحديث رواه: مسلم في كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع، ج ١ ص ٣٤٦/٣٤٧؛ والنسائي في كتاب الغسل والتيمم، باب الاغتسال بالثلج والبرد، ج ١ ص ١٩٨؛ وأحمد في مسنده، ج ٤ ص ٣٥٤.

كان يدعو به في الاستفتاح وفي الاعتدال من الركوع، والغسل.

فهذه الأمور توجب تبريد المغسول بها و «البرد» يعطي قوة وصلابة، وما يسر يوصف بالبرد وقرة العين، ولهذا كان دمع السرور بارداً، ودمع الحزن جاراً، لأن ما يسوء النفس يوجب حزنها وغمها، وما يسرها يوجب فرحها وسرورها وذلك مما يبرد الباطن.

فسأل النبـي صلى الله عليه وسلم: أن يغسل الذنوب على وجه يبرد القلوب أعظم برد يكون بما فيه من الفرح والسرور الذي أزال عنه ما يسوء النفس من الذنوب.

وقوله: «بالثلج والبرد والماء البارد» تمثيل بما فيه من هذا الجنس، وإلا فنفس الذنوب لا تغسل بذلك، كما يقال: أذقنا برد عفوك، وحلاوة مغفرتك. ولما قضى أبو قتادة دين المدين قال صلى الله عليه وسلم: «الآن برّدت جلدته»[1] ويقال: برد اليقين، وحرارة الشك. ويقال: هذا الأمر يثلج له الصدر، إذا كان حقاً يعرفه القلب ويفرح به، حتى يصير في مثل برد الثلج. ومرض النفس: إما شبهة وإما شهوة أو غضب، والثلاثة توجب السخونة. ويقال لمن نال مطلوبه: برد قلبه. فإن الطالب فيه حرارة الطلب.

وقوله: ﴿خذ من أموالهم﴾[2]، دليل على أن عمل الحسنات يطهر النفس ويزكيها من الذنوب السالفة، فإنه قاله بعد قولـه: ﴿وآخرون اعترفوا﴾[3] الآية. فالتوبة والعمل الصالح يحصل بهما التطهير والتزكية ولهذا قال في سياق قوله: ﴿قل للمؤمنين يغضوا﴾[4] الآيات. ﴿وتوبوا إلى

---

(١) الحديث رواه: الإمام أحمد في مسنده، ج ٣ ص ٣٣٠.
(٢) الآية ١٠٣ من سورة التوبة.
(٣) الآية ١٠٢ من سورة التوبة.
(٤) الآية ٣٠ من سورة النور.

الله﴾[1] الآية. فأمرهم جميعاً بالتوبة في سياق ما ذكره، لأنه لا يسلم أحد من هذا الجنس، كما في الصحيح: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا»[2] الحديث. وكذلك في الصحيح «أن قوله: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾[3] نزلت بسبب رجل نال من امـرأة كل شيء إلا الجماع، ثم ندم فنزلت»[4].

ويحتاج المسلم في ذلك إلى أن يخاف الله، وينهى النفس عن الهوى، ونفس الهوى والشهوة لا يعاقب عليه، بل على اتباعه والعمل به، فإذا كانت النفس تهوى وهو ينهاها كان نهيه عبادة لله، وعملاً صالحاً. وثبت عنه أنه قال: «المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله»[5] فيؤمر بجهادها كما يؤمر بجهاد من يأمر بالمعاصي ويدعو إليها، وهو إلى جهاد نفسه أحوج. فإن هذا فرض عين وذاك فرض كفاية، والصبر في هذا من أفضل الأعمال، فإن هذا الجهاد حقيقة ذلك الجهاد، فمن صبر عليه صبر على ذلك الجهاد. كما قال: «والمهاجر من هجر السيئات»[6].

---

(١) الآية ٣١ من سورة النور.

(٢) الحديث أخرجه: البخاري في كتاب الاستئذان، باب الزنا الجوارح دون الفرج، ج ١١ ص ٢٦؛ ومسلم في كتاب القدر، باب قدّر على ابن آدم حظه من الزنى وغيره، ج ٤ ص ٢٠٤٦؛ وأبو داود في كتاب النكاح، باب ما يُـؤمر به من غض البصر، ج ٢ ص ٦١١/٦١٢؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٢٧٦.

(٣) الآية ١١٤ من سورة هود.

(٤) الحديث أخرجه: البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل، إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ ج ٨ ص ٣٥٥.
والترمذي في أبواب التفسير، ج ٤ ص ٣٥٢/٣٥٣.

(٥) الحديث أخرجه: الترمذي في أبواب الجهاد، باب ما جاء في فضل من مات مرابطاً، ج ٣ ص ٨٩. وقال: حديث حسن صحيح؛ وأحمد في مسنده، ج ٦ ص ٢٠.

(٦) الحديث رواه: البخاري في كتاب الـرقـاق، بـاب الانتهاء عن المعـاصي، ج ١١ ص ٣١٦؛ وابن ماجه في كتاب الفتن، باب حرمة دم المؤمن وماله، ج ٢ ص ١٢٩٨؛ وأحمد في مسنده، ج ٣ ص ١٥٤ مع اختلاف في اللفظ.

ثم هذا لا يكون محموداً فيه، إلا إذا غلب، بخلاف الأول فإنه من ﴿يقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾[1] ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «ليس الشديد بالصرعة إلخ»[2]، وذلك لأن الله أمر الإنسان أن ينهى النفس عن الهوى، وأن يخاف مقام ربه، فحصل له من الإيمان ما يعينه على الجهاد، فإذا غلب كان لضعف إيمانه، فيكون مفرطاً بترك المأمور، بخلاف العدو الكافر فإنه قد يكون بدنه أقوى.

فالذنوب إنما تقع إذا كانت النفس غير ممتثلة لما أمرت به، ومع امتثال المأمور لا تفعل المحظور، فإنهما ضدان. قال تعالى: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء﴾[3] الآية. وقال: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾[4]، فعباد الله المخلصون لا يغويهم الشيطان، و«الغي» خلاف الرشد، وهو اتباع الهوى. فمن مالت نفسه إلى محرم، فليأت بعبادة الله كما أمر الله مخلصاً له الدين، فإن ذلك يصرف عنه السوء والفحشاء[5] خشية ومحبة، والعبادة له وحده، وهذا يمنع من السيئات.

فإذا كان تائباً، فإن كان ناقصاً، فوقعت السيئات من صاحبه كان ماحياً لها بعد الوقوع، فهو كالترياق الذي يدفع أثر السم، ويرفعه بعد حصوله، وكالغذاء من الطعام والشراب، وكالاستمتاع بالحلال الذي يمنع

---

(١) الآية ٧٤ من سورة النساء؛ وقد أورد ابن تيمية بداية الآية «يقتل» لتناسب سياق الكلام وهي في المصحف «فيقتل».

(٢) الحديث أخرجه: البخاري في كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، ج ١٠ ص ٥١٨؛ ومسلم في كتاب البر، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، ج ٤ ص ٢٠١٤؛ ومالك في الموطأ، في كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في الغضب، ج ٢ ص ٩٠٦؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٢٣٦.

(٣) الآية ٢٤ من سورة يوسف.

(٤) الآية ٤٢ من سورة الحجر.

(٥) بياض بالأصل «من هامش مجموع الفتاوى ج ١٠ ص ٦٣٦».

النفس عن طلب الحرام، فإذا حصل له طلب إزالته، وكالعلم الذي يمنع من الشك، ويرفعه بعد وقوعه، وكالطب الذي يحفظ الصحة ويدفع المرض، وكذلك ما في القلب من الإيمان يحفظ بأشباهه مما يقوم به.

وإذا حصل منه مرض من الشبهات والشهوات أزيل بهذه، ولا يحصل المرض إلا لنقص أسباب الصحة، كذلك القلب لا يمرض إلا لنقص إيمانه. وكذلك الإيمان والكفران متضادان، فكل ضدين: فأحدهما يمنع الآخر تارة، ويرفعه أخرى، كالسواد والبياض[1] حصل موضعه ويرفعه إذا كان حاصلاً، كذلك الحسنات والسيئات والإحباط[2] والمعتزلة أن الكبيرة تحبط الحسنات حتى الإيمان، وإن من مات عليها لم يكن[3] الجبائي[4] وابنه بالموازنة. لكن قالوا: من رجحت سيئاته خلد في النار، والموازنة بلا تخليد قول[5] الإحباط ما أجمع عليه وهو حبوط الحسنات كلها بالكفر كما قال: ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه﴾[6] الآية. وقوله: ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله﴾[7] الآية. وقال: ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾[8]. وقال: ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾[9] الآية.

وما ادعته المعتزلة مخالف لأقوال السلف، فإنه سبحانه ذكر حد الزاني

---

(١) بياض بالأصل «من هامش مجموع الفتاوى» ج ١٠ ص ٦٣٧.
(٢) بياض بالأصل «من هامش مجموع الفتاوى» ج ١٠ ص ٦٣٧.
(٣) بياض بالأصل «من هامش مجموع الفتاوى» ج ١٠ ص ٦٣٧.
(٤) هو أبو علي الجبائي محمد بن عبدالوهاب البصري، شيخ المعتزلة، وأبو شيخ المعتزلة، أبي هاشم. توفي سنة ثلاث وثلاثمائة [العبر، ج ١ ص ٤٤٥].
(٥) بياض بالأصل «من هامش مجموع الفتاوى، ج ١٠ ص ٦٣٧».
(٦) الآية ٢١٧ من سورة البقرة.
(٧) الآية ٥ من سورة المائدة.
(٨) الآية ٨٨ من سورة الأنعام.
(٩) الآية ٦٥ من سورة الزمر.

وغيره، ولم يجعلهم كفاراً حابطي الأعمال، ولا أمر بقتلهم كما أمر بقتل المرتدين، والمنافقون لم يكونوا يظهرون كفرهم. والنبي صلى الله عليه وسلم أمر بالصلاة على الغال، وعلى قاتل نفسه، ولو كانوا كفاراً ومنافقين لم تجز الصلاة عليهم. فعلم أنهم لم يحبط إيمانهم كله. وقال عمن شرب الخمر: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»[1] وذلك الحب من أعظم شعب الإيمان. فعلم أن إدمانه لا يذهب الشعب كلها. وثبت من وجوه كثيرة: ﴿يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان﴾[2]، ولو حبط لم يكن في قلوبهم شيء منه. وقال تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب﴾[3] الآية. فجعل من المصطفين.

فإذا كانت السيئات لا تحبط جميع الحسنات، فهل تحبط بقدرها وهل يحبط بعض الحسنات بذنب دون الكفر؟ فيه قولان للمنتسبين إلى السنة. منهم من ينكره، ومنهم من يثبته، كما دلت عليه النصوص. مثل قوله: ﴿لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾[4] الآية. دل على أن هذه السيئة تبطل الصدقة، وضرب مثله بالمرائي. وقالت عائشة: «أبلغي زيداً أن جهاده بطل»[5] الحديث.

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر، ج ١٢ ص ٧٥.

(٢) الحديث رواه: البخاري من حديث طويل في كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، ج ١٣ ص ٤٧٣/٤٧٤؛ ومسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه مع اختلاف في اللفظ، ج ١ ص ٩٣؛ والترمذي في أبواب البر والصلة، باب ما جاء في الكبر، ج ٣ ص ٢٤٤؛ والنسائي في كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان، ج ١٣؛ وأحمد في مسنده، ج ١ ص ٤١٦.

(٣) الآية ٣٢ من سورة فاطر.

(٤) الآية ٢٦٤ من سورة البقرة.

(٥) رواه الدارقطني في السنن، ج ٣ ص ٥٢.

وأما قوله: ﴿أن تحبط أعمالكم﴾[1] وحديث صلاة العصر ففي ذلك نزاع. وقال تعالى: ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾[2] قال الحسن: بالمعاصي والكبائر. وعن عطاء: بالشرك والنفاق، وعن ابن السائب: بالرياء والسمعة، وعن مقاتل: بالمن. وذلك أن قوماً منوا بإسلامهم، فما ذكر عن الحسن يدل على أن المعاصي والكبائر تحبط الأعمال.

فإن قيل: لم يرد إلا إبطالها بالكفر.

قيل: ذلك منهي عنه في نفسه، وموجب للخلود الدائم، فالنهي عنه لا يعبر عنه بهذا، بل على وجه التغليظ. كقوله: ﴿من يرتد منكم عن دينه﴾[3] ونحوها. والله سبحانه في هذه وفي آية المن سماها إبطالاً، ولم يسمه إحباطاً، ولهذا ذكر بعدها الكفر بقوله: ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار﴾[4] الآية.

فإن قيل: المراد إذا دخلتم فيها فأتموها، وبها احتج من قال: يلزم التطوع بالشروع فيه.

قيل: لو قدر أن الآية تدل على أنه منهي عن إبطال بعض العمل، فإبطاله كله أولى، بدخوله فيها فكيف وذلك قبل فراغه لا يسمى صلاة ولا صوماً؟!

ثم يقال: الإبطال يوجد قبل الفراغ أو بعده، وما ذكره وأمر بالإتمام، والإبطال هو إبطال الثواب، ولا نسلم أن من لم يتم العبادة يبطل جميع ثوابه، بل يقال: إنه يثاب على ما فعل من ذلك. وفي الصحيح حديث المفلس «الذي يأتي بحسنات أمثال الجبال»[5].

* * *

(1) الآية ٢ من سورة الحجرات.
(2) الآية ٣٣ من سورة محمد.
(3) الآية ٥٤ من سورة المائدة.
(4) الآية ٣٤ من سورة محمد.
(5) الحديث رواه: مسلم في كتاب البر، باب تحريم الظلم، ج ٤ ص ١٩٩٧؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٣٠٣.

الفَصلُ الثالِث

[حكم السياحة مع قطيعة الرحم]

سُئِل شيخ الإسلام، رحمه الله تعالى، عن رجل تفقه وعلم ما أمر الله به وما نهى عنه، ثم تزهد وترك الدنيا والمال والأهل والأولاد خائفاً من كسب الحرام والشبهات، وبعث الآخرة وطلب رضا الله ورسوله، وساح في أرض الله والبلدان، فهل يجوز له أن يقطع الرحم ويسيح كما ذكر أم لا؟

فأجاب: الحمد لله وحده.

[الزهد المشروع:]

«الزهد المشروع» هو ترك [كل] شيء لا ينفع في الدار الآخرة، وثقة القلب بما عند الله. كما في الحديث الذي في الترمذي: «ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهد أن تكون بما في يد الله أوثق بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك»[1] لأن الله تعالى يقول: ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾[2]. فهذا صفة «القلب».

---

(١) الحديث رواه الترمذي في كتاب الزهد، باب ما جاء في الزهادة في الدنيا، ج ٤ ص ٣، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه؛ وابن ماجه في كتاب الزهد، باب الزهد في الدنيا، ج ٢ ص ١٣٧٣.

(٢) الآية ٢٣ من سورة الحديد.

وأما في «الظاهر» فترك الفضول التي لا يستعان بها على طاعة الله من مطعم وملبس ومال وغير ذلك. كما قال الإمام أحمد: إنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وصبر أيام قلائل.

[زهد الرسول صلى الله عليه وسلم:]

وجماع ذلك خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما ثبت عنه في الصحيح أنه كان يقول: «خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»[1]. وكان عادته في المطعم أنه لا يرد موجوداً، ولا يتكلف مفقوداً، ويلبس من اللباس ما تيسر من قطن وصوف وغير ذلك، وكان القطن أحب إليه، وكان إذا بلغه أن بعض أصحابه يريد أن يعتدي فيزيد في الزهد، أو العبادة على المشروع، ويقول: أينا مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! يغضب لذلك، ويقول: «والله إني لأخشاكم لله، وأعلمكم بحدود الله تعالى». وبلغه أن بعض أصحابه قال: أما أنا فأصوم فلا أفطر، وقال الآخر: أما أنا فأقوم فلا أنام، وقال آخر: أما أنا فلا أتزوج النساء، وقال آخر: أما أنا فلا آكل اللحم، فقال صلى الله عليه وسلم: «لكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[2].

فأما الإعراض عن الأهل والأولاد فليس مما يحبه الله ورسوله، ولا هو من دين الأنبياء؛ بل قد قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك

---

(١) الحديث رواه: مسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، ج ٢ ص ٥٩٢؛ وأبو داود في كتاب السنة، باب في لزوم السنة، ج ٥ ص ١٥ مع اختلاف في اللفظ؛ وابن ماجه في المقدمة، باب اجتناب البدع والجدل، ج ١ ص ١٧؛ والدارمي في المقدمة، باب اتباع السنة، ج ١ ص ٤٥؛ وأحمد في مسنده، ج ٣ ص ٣١٠.

(٢) سبق تخريج هذا الحديث، ص ٥٦.

وجعلنا لهم أزواجاً وذرية﴾[1]. والإنفاق على العيال والكسب لهم يكون واجباً تارة ومستحباً أخرى، فكيف يكون ترك الواجب أو المستحب من الدين؟!

[أنواع السياحة وأحكامها:]

وكذلك السياحة في البلاد لغير مقصود مشروع، كما يعانيه بعض النساك أمر منهى عنه، قال الإمام أحمد: ليست السياحة من الإسلام في شيء، ولا من فعل النبيين ولا الصالحين.

وأما السياحة المذكورة في القرآن من قوله: ﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون﴾[2]، ومن قوله: ﴿مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً﴾[3]، فليس المراد بها هذه السياحة المبتدعة؛ فإن الله قد وصف النساء اللاتي يتزوجهن رسوله بذلك، والمرأة المزوجة لا يشرع لها أن تسافر في البراري سائحة؛ بل المراد بالسياحة شيئان:

(أحدهما): الصيام. كما روى عمرو بن دينار[4] عن يحيى بن جعدة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن ترك الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي

---

(١) الآية ٣٨ من سورة الرعد.
(٢) الآية ١١٢ من سورة التوبة.
(٣) الآية ٥ من سورة التحريم.
(٤) عمرو بن دينار: هو عمرو بن دينار الجمحي بالولاء أبو محمد الأثرم: فقيه، كان مفتي أهل مكة، فارسي الأصل، مولده بصنعاء سنة ٤٦هـ ووفاته بمكة سنة ١٢٦هـ. قال ابن عيينة وعمرو بن جرير: كان ثقة ثبتاً كثير الحديث صدوقاً عالماً. وذكره ابن حبان في الثقات [تهذيب التهذيب، ج ٨ ص ٣٠؛ والأعلام، ج ٥ ص ٧٧].

يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[1]. متفق عليه.

لكن إذا ترك الإنسان الحرام، أو الشبهة، بترك واجب أو مستحب، وكان الإثم أو النقص الذي عليه في الترك أعظم من الإثم الذي عليه في الفعل لم يشرع ذلك، كما ذكر أبو طالب المكي وأبو حامد الغزالي، عن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عمن ترك ما لا شبهة فيه وعليه دين؟ فسأله ولده: أترك هذا المال الذي فيه شبهة فلا أقضيه؟ فقال له: اتدع[2].

***

(١) الحديث رواه: البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ج ١ ص ١٢٦؛ ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ج ٣ ص ١٢١٩/١٢٢٠؛ وأبو داود في كتاب البيوع، باب في اجتناب الشبهات، ج ٣ ص ٦٢٤؛ وابن ماجه في الفتن، باب الوقوف عند الشبهات، ج ٢ ص ١٣١٨/١٣١٩؛ والدارمي في كتاب البيوع، باب في الحلال بين والحرام بين، ج ٢ ص ٢٤٥؛ والنسائي في كتاب البيوع، باب اجتناب الشبهات في الكسب، ج ٧ ص ٢٤٢/٢٤٣؛ ورواه هؤلاء جميعاً من طريق النعمان بن بشير ولم نجده من الطريق التي ذكرها ابن تيمية رحمها الله.

(٢) بياض بالأصل «من هامش مجموع الفتاوى، ج ١٠ ص ٦٤٤».

الفَصْلُ الرَّابِعُ

[معنى حق اليقين وعين اليقين وعلم اليقين]

سُئل شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية، رحمه الله، عن قوله تعالى: ﴿حق اليقين﴾[1] و﴿عين اليقين﴾[2] و﴿علم اليقين﴾[3] فما معنى كل مقام منها؟ وأي مقام أعلى؟

فأجاب: الحمد لله رب العالمين. للناس في هذه الأسماء مقالات معروفة.

(منها): أن يقال: «علم اليقين» ما علمه بالسماع والخبر والقياس والنظر، و«عين اليقين» ما شاهده وعاينه بالبصر، و«حق اليقين» ما باشره ووجده وذاقه وعرفه بالاعتبار.

«فالأولى» مثل من أخبر أن هناك عسلاً، وصدق المخبر، أو رأى آثار العسل فاستدل على وجوده.

و«الثاني» مثل من رأى العسل وشاهده وعاينه، وهذا أعلى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس المخبر كالمعاين»[4].

---

(١) الآية ٩٥ من سورة الواقعة.

(٢) الآية ٧ من سورة التكاثر.

(٣) الآية ٥ من سورة التكاثر.

(٤) الحديث رواه: الإمام أحمد في مسنده، ج ١ ص ٢١٥ ولفظه: «ليس الخبر كالمعاينة» ورواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح وصححه ابن حبان انظر مجمع الزوائد ج ١ ص ١٥٣.

و «الثالث» مثل من ذاق العسل، ووجد طعمه وحلاوته، ومعلوم أن هذا أعلى مما قبله؛ ولهذا يشير أهل المعرفة إلى ما عندهم من الذوق والوجد، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»(١)، وقال صلى الله عليه وسلم: «ذاق طعم الإيمان: من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً»(٢)، فالناس فيما يجده أهل الإيمان ويذوقونه من حلاوة الإيمان وطعمه على ثلاث درجات.

[درجات أهل الإيمان:]

«الأولى»: من علم ذلك مثل من يخبره به شيخ له يصدقه، أو يبلغه ما أخبر به العارفون عن أنفسهم، أو يجد من آثار أحوالهم ما يدل على ذلك.

و «الثانية»: من شاهد ذلك وعاينه، مثل أن يعاين من أحوال أهل المعرفة والصدق واليقين ما يعرف به مواجيدهم وأذواقهم، وإن كان هذا في الحقيقة لم يشاهد ما ذاقوه ووجدوه، ولكن شاهد ما دل عليه لكن هو أبلغ من المخبر، والمستدل بآثارهم.

---

(١) الحديث رواه: البخاري في كتاب الإيمان، باب من كره أن يعود في الكفر، ج ١ ص ٧٢؛ ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، ج ١ ص ٦٦؛ وأحمد في مسنده، ج ٣ ص ٢٤٨؛ وابن ماجه في كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، ج ٢ ص ١٣٣٨/١٣٣٩.

(٢) الحديث رواه: مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً فهو مؤمن، ج ١ ص ٦٢؛ والترمذي في أبواب الإيمان، ج ٤ ص ١٢٦، وقال: هذا حديث حسن صحيح؛ وأحمد في مسنده، ج ١ ص ٢٠٨.

و «الثالثة»: أن يحصل له من الذوق والوجه في نفسه ما كان سمعه، كما قال بعض الشيوخ: لقد كنت في حال أقول فيها إن كان أهل الجنة في الجنة في مثل هذا الحال إنهم لفي عيش طيب. وقال آخر: إنه ليمر على القلب أوقات يرقص منها طرباً. وقال الآخر: لأهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم.

[درجات الناس في الإيمان بالآخرة:]

والناس فيما أُخبروا به من أمر الآخرة على ثلاث درجات:

(إحداها): العلم بذلك لما أخبرتهم الرسل، وما قام من الأدلة على وجود ذلك.

«الثانية»: إذا عاينوا ما وعدوا به من الثواب والعقاب والجنة والنار.

و «الثالثة»: إذا باشروا ذلك؛ فدخل أهل الجنة الجنة؛ وذاقوا ما كانوا يوعدون، ودخل أهل النار النار، وذاقوا ما كانوا يوعدون، فالناس فيما يوجد في القلوب، وفيما يوجد خارج القلوب على هذه الدرجات الثلاث.

[درجات الناس فيما يخبروا به من أمور الدنيا:]

وكذلك في أمور الدنيا: فإن من أخبر بالعشق أو النكاح ولم يره ولم يذقه كان له علم به، فإن شاهده ولم يذقه كان له معاينة له، فإن ذاقه بنفسه كان له ذوق وخبرة به، ومن لم يذق الشيء لم يعرف حقيقته، فإن العبارة إنما تفيد التمثيل والتقريب، وأما معرفة الحقيقة فلا تحصل بمجرد العبارة، إلا لمن يكون قد ذاق ذلك الشيء المعبر عنه، وعرفه وخبره؛ ولهذا يسمون أهل المعرفة لأنهم عرفوا بالخبرة والذوق ما يعلمه غيرهم بالخبر والنظر، وفي الحديث الصحيح: «أنّ هرقل ملك الروم سأل أبا سفيان بن حرب فيما سأله عنه من أمور النبي صلى الله عليه وسلم قال: فهل يرجع

أحد منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا، قال: وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلب لا يسخطه أحد»[1].

[القلب بين زيادة الإيمان وزيادة المحبة:]

فالإيمان إذا باشر القلب وخالطته بشاشته لا يسخطه القلب، بل يحبه ويرضاه، فإن له من الحلاوة في القلب واللذة والسرور والبهجة ما لا يمكن التعبير عنه لمن لم يذقه، والناس متفاوتون في ذوقه والفرح والسرور الذي في القلب له من البشاشة ما هو بحسبه، وإذا خالطت القلب لم يسخطه، قال تعالى: ﴿قل: بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾[2]، وقال تعالى: ﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك، ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول: أيكم زادته هذه إيماناً، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾[4]، فأخبر سبحانه أنهم يستبشرون بما أنزل من القرآن، والاستبشار هو الفرح والسرور؛ وذلك لما يجدونه في قلوبهم من الحلاوة واللذة والبهجة بما أنزل الله.

و «اللذة» أبداً تتبع المحبة فمن أحب شيئاً ونال ما أحبه وجد اللذة به، فالذوق هو إدراك المحبوب، اللذة الظاهرة كالأكل مثلاً: حال الإنسان فيها أنه يشتهي الطعام ويحبه، ثم يذوقه ويتناوله فيجد حينئذ لذته وحلاوته، وكذلك النكاح وأمثال ذلك.

---

(١) الحديث رواه: البخاري من حديث طويل في كتاب بدء الوحي، ج ١ ص ٣٢؛ ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، ج ٣ ص ١٣٩٥؛ وأحمد في مسنده، ج ١ ص ٢٦٣.

(٢) الآية ٥٨ من سورة يونس.

(٣) الآية ٣٦ من سورة الرعد.

(٤) الآية ١٢٤ من سورة التوبة.

وليس للخلق محبة أعظم ولا أكمل ولا أتم من محبة المؤمنين لربهم، وليس في الوجود ما يستحق أن يحب لذاته من كل وجه إلا الله تعالى، وكل ما يحب سواه فمحبته تبع لحبه، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام إنما يحب لأجل الله، ويطاع لأجل الله، ويتبع لأجل الله. كما قال تعالى: ﴿قل: إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾[1]، وفي الحديث: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي»[2]، وقال تعالى: ﴿قل: إن كان آباؤكم﴾ إلى قوله: ﴿أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[3]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[4]، وفي حديث الترمذي وغيره: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»[5]، وقال تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله﴾[6]، فالذين آمنوا أشد حباً لله، من كل محب لمحبوبه. وقد بسطنا الكلام على هذا في مواضع متعددة.

و «المقصود هنا» أن أهل الإيمان يجدون بسبب محبتهم لله ولرسوله

---

(١) الآية ٣١ من سورة آل عمران.

(٢) الحديث رواه: الترمذي في المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: «هذا حديث حسن غريب».

(٣) الآية ٢٤ من سورة التوبة.

(٤) الحديث أخرجه: البخاري في كتاب الإيمان، باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان، ج ١ ص ٥٨؛ ومسلم في كتاب الإيمان، باب (وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من الأهل.. الخ)، ج ١ ص ٦٧؛ والنسائي في كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان، ج ٨ ص ١١٤/١١٥؛ وابن ماجه في المقدمة، باب في الإيمان، ج ١ ص ٢٦؛ وأحمد في مسنده، ج ٣ ص ١٧٧.

(٥) هذا الحديث سبق تخريجه ص ٤٦.

(٦) الآية ١٦٥ من سورة البقرة.

من حلاوة الإيمان ما يناسب هذه المحبة، ولهذا علق النبي صلى الله عليه وسلم ما يجدونه بالمحبة فقال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[1].

ومن ذلك ما يجدونه من ثمرة التوحيد والإخلاص. والتوكل والدعاء لله وحده، فإن الناس في هذا الباب على ثلاث درجات:

[درجات الناس فيما يجدونه من ثمرة التوحيد:]

«منهم» من علم ذلك سماعاً واستدلالاً.

«ومنهم» من شاهد وعاين ما يحصل لهم.

و «منهم» من وجد حقيقة الإخلاص والتوكل على الله، والالتجاء إليه، والاستعانة به، وقطع التعلق بما سواه، وجرب من نفسه أنه إذا تعلق بالمخلوقين ورجاهم، وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة أو يدفعوا عنه مضرة، فإنه يخذل من جهتهم، ولا يحصل مقصوده، بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقت حاجته إليهم، فلا ينفعونه: إما لعجزهم، وإما لانصراف قلوبهم عنه، وإذا توجه إلى الله بصدق الافتقار إليه، واستغاث به مخلصاً له الدين: أجاب دعاءه، وأزال ضرره، وفتح له أبواب الرحمة. فمثل هذا قد ذاق [من] حقيقة التوكل والدعاء لله، ما لم يذق غيره. وكذلك من ذاق طعم إخلاص الدين لله وإرادة وجهه دون ما سواه؛ يجد من الأحوال والنتائج والفوائد ما لا يجده من لم يكن كذلك.

بل من اتبع هواه في مثل طلب الرئاسة والعلو: وتعلقه بالصور الجميلة، أو جمعه للمال يجد في أثناء ذلك من الهموم والغموم والأحزان

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه ص ٧٩.

والآلام وضيق الصدر ما لا يعبر عنه. وربما لا يطاوعه قلبه على ترك الهوى، ولا يحصل له ما يسره: بل هو في خوف وحزن دائماً: إن كان طالباً لما يهواه فهو قبل إدراكه حزين متألم حيث لم يحصل. فإذا أدركه كان خائفاً من زواله وفراقه.

وأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ فإذا ذاق هذا أو غيره حلاوة الإخلاص لله. والعبادة له. وحلاوة ذكره ومناجاته. وفهم كتابه، وأسلم وجهه لله وهو محسن بحيث يكون عمله صالحاً. ويكون لوجه الله خالصاً؛ فإنه يجد من السرور واللذة والفرح ما هو أعظم مما يجده الداعي المتوكل الذي نال بدعائه وتوكله ما ينفعه من الدنيا. أو اندفع عنه ما يضره؛ فإن حلاوة ذلك هي بحسب ما حصل له من المنفعة، أو اندفع عنه من المضرة، ولا أنفع للقلب من التوحيد وإخلاص الدين لله، ولا أضر عليه من الإشراك.

فإذا وجد حقيقة الإخلاص التي هي حقيقة ﴿إياك نعبد﴾[1] مع حقيقة التوكل التي هي حقيقة ﴿إياك نستعين﴾[2] كان هذا فوق ما يجده كل أحد لم يجد مثل هذا. والله أعلم.

* * *

---

(١) الآية ٥ من سورة الفاتحة.
(٢) الآية السابقة.



الفَصلُ الخامِس

[الوصية الصغرى:]

سُؤالُ أبي القاسِم المغربي[1]

يتفضل الشيخ الإمام بقية السلف، وقدوة الخلف، أعلم من لقيت ببلاد المشرق والمغرب، تقي الدين أبو العباس «أحمد بن تيمية» بأن يوصيني بما يكون فيه صلاح ديني ودنياي، ويرشدني إلى كتاب يكون عليه اعتمادي في علم الحديث، وكذلك في غيره من العلوم الشرعية وينبهني على أفضل الأعمال الصالحة بعد الواجبات، ويبين لي أرجح المكاسب، كل ذلك على قصد الإيماء والاختصار، والله تعالى يحفظه. والسلام الكريم عليه ورحمة الله وبركاته.

فأجاب:

الحمد لله رب العالمين.

[وصية الله في كتابه:]

أما «الوصية» فما أعلم وصية أنفع من وصية الله ورسوله لمن عقلها واتبعها. قال تعالى: ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله﴾[2].

[وصية النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ:]

ووصى النبي صلى الله عليه وسلم معاذاً لما بعثه إلى اليمن فقال:

---

(١) تسمى «الوصية الصغرى». «من هامش مجموع الفتاوى»، ج ١٠ ص ٦٥٣».

(٢) الآية ١٣١ من سورة النساء.

«يا معاذ: اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[1].

وكان معاذ رضي الله عنه من النبي صلى الله عليه وسلم بمنزلة علية؛ فإنه قال له: «يا معاذ! والله! إني لأحبك»[2] وكان يردفه وراءه. وروى فيه: «أنه أعلم الأمة بالحلال والحرام[3]، وأنه يحشر أمام العلماء برتوة ــ أي بخطوة ــ»[4]. ومن فضله أنه بعثه النبي صلى الله عليه وسلم مبلغاً عنه داعياً ومفقهاً ومفتياً وحاكماً إلى أهل اليمن.

وكان يشبهه بإبراهيم الخليل عليه السلام، وإبراهيم إمام الناس. وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين، تشبيهاً له بإبراهيم[5].

---

(١) الحديث رواه: الترمذي في كتاب البر، باب ما جاء في معاشرة الناس، ج ٣ ص ٢٤٠، وقال: «والصحيح حديث أبي ذر»؛ وأحمد في مسنده، ج ٥ ص ٢٢٨؛ ورواه الطبراني في المعجم الصغير. انظر الروض الداني إلى المعجم الصغير للطبراني، ج ١ ص ٣٢٠.

(٢) الحديث رواه: أبو داود في كتاب الوتر، باب في الاستغفار، ج ٢ ص ١٨١؛ ومالك في كتاب الشعر، باب ما جاء في المتحابين في الله، ج ٢ ص ٩٥٤؛ وأحمد في مسنده، ج ٥ ص ٢٢٩؛ والنسائي في كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء، ج ٣ ص ٥٣ وقال عنه المنذري في الترغيب، ج ٤ ص ١٨ بإسناد صحيح؛ ورواه ابن حبان في صحيحه. انظر موارد الظمآن، ص ٦٢٢.

(٣) رواه الترمذي في كتاب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل، ج ٥ ص ٣٣٠ من حديث طويل وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث قتادة إلا من هذا الوجه، ورواه ابن ماجه في المقدمة، باب فضائل خباب، ج ١ ص ٥٥.

(٤) رواه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في تاريخه، فيما عزاه إليه الحافظ في الإصابة، ج ٣ ص ٤٠٧. ورواه ابن عساكر في تاريخه من طريق عن محمد بن الخطاب، فيما عزاه إليه ابن حجر في الإصابة، ج ٣ ص ٤٠٧؛ ورواه ابن سعد في طبقاته، ج ٢ ص ٣٤٧.

(٥) رواه أبو نعيم في الحلية، ج ١ ص ٢٣٠.

[شرح وصية الرسول:]

ثم إنه صلى الله عليه وسلم وصاه هذه الوصية، فعلم أنها جامعة. وهي كذلك لمن عقلها، مع أنها تفسير الوصية القرآنية.

أما بيان جمعها، فلأن العبد عليه «حقان»:

حق لله عز وجل. وحق لعباده. ثم الحق الذي عليه لا بد أن يخل ببعضه أحياناً: إما بترك مأمور به، أو فعل منهي عنه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اتق الله حيثما كنت» وهذه كلمة جامعة وفي قوله: «حيثما كنت» تحقيق لحاجته إلى التقوى في السر والعلانية. ثم قال: «واتبع السيئة الحسنة تمحها» فإن الطبيب متى تناول المريض شيئاً مضراً أمره بما يصلحه. والذنب للعبد كأنه أمر حتم. فالكيس هو الذي لا يزال يأتي من الحسنات بما يمحو السيئات. وإنما قدم في لفظ الحديث «السيئة» وإن كانت مفعولة، لأن المقصود هنا محوها لا فعل الحسنة، فصار كقوله في بول الأعرابي: «صبوا عليه ذنوباً من ماء»(1).

[الأشياء التي تزول بموجبها الذنوب:]

وينبغي أن تكون الحسنات من جنس السيئات، فإنه أبلغ في المحو والذنوب يزول موجبها بأشياء:

(أحدها): التوبة.

---

(1) الحديث رواه: البخاري في كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، ج ١ ص ٣٢٣؛ ومسلم في كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات، ج ١ ص ٢٣٦؛ وأبو داود في كتاب الطهارة، باب الأرض يصيبها البول، ج ١ ص ٢٦٤/٢٦٥؛ والترمذي في كتاب الطهارة، باب ما جاء في البول يصيب الأرض، ج ١ ص ٩٩ مع اختلاف في اللفظ، والنسائي في كتاب الطهارة، باب ترك التوقيت في الماء، ج ١ ص ٤٨ مع اختلاف يسير في اللفظ؛ وابن ماجه في كتاب الطهارة، باب الأرض يصيبها البول كيف تغسل.

و (الثاني): الاستغفار من غير توبة. فإن الله تعالى قد يغفر له إجابة لدعائه وإن لم يتب، فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال.

(الثالث): الأعمال الصالحة المكفرة: إما «الكفارات المقدرة» كما يكفر المجامع في رمضان والمظاهر والمرتكب لبعض محظورات الحج أو تارك بعض واجباته، أو قاتل الصيد بالكفارات المقدرة، وهي «أربعة أجناس»: هدي وعتق وصدقة وصيام.

وإما «الكفارات المطلقة» كما قال حذيفة لعمر: فتنة الرجل في أهله وماله وولده، يكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد دل على ذلك القرآن والأحاديث الصحاح في التكفير بالصلوات الخمس، والجمعة والصيام، والحج وسائر الأعمال التي يقال فيها: من قال كذا وعمل كذا غفر له، أو غفر له ما تقدم من ذنبه، وهي كثيرة لمن تلقاها من السنن خصوصاً ما صنف في فضائل الأعمال.

[العناية بمزيلات الذنوب:]

واعلم أن العناية بهذا من أشد ما بالإنسان الحاجة إليه، فإن الإنسان من حين يبلغ، خصوصاً في هذه الأزمنة ونحوها من أزمنة الفترات التي تشبه الجاهلية من بعض الوجوه، فإن الإنسان الذي ينشأ بين أهل علم ودين قد يتطلخ من أمور الجاهلية بعدة أشياء، فكيف بغير هذا؟!

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»[1] هذا خبر تصديقه في قوله تعالى: ﴿فاستمتعتم

(١) الحديث رواه: البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لتتبعن سنن من كان قبلكم» ج ١٣ ص ٣٠٠؛ ومسلم في كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، ج ٤ ص ٢٠٥٤؛ وابن ماجه في كتاب الفتن، باب =

بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم، وخضتم كالذي خاضوا﴾[1]، ولهذا شواهد في الصحاح والحسان.

وهذا أمر قد يسري في المتسبين إلى الدين من الخاصة؛ كما قال غير واحد من السلف منهم ابن عيينة، فإن كثيراً من أحوال اليهود قد ابتلى به بعض المتسبين إلى العلم، وكثيراً من أحوال النصارى قد ابتلي به بعض المتسبين إلى الدين، كما يبصر ذلك من فهم دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم، ثم نزله على أحوال الناس.

وإذا كان الأمر كذلك فمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، وكان ميتاً فأحياه الله وجعل له نوراً يمشي به في الناس، لا بد أن يلاحظ أحوال الجاهلية وطريق الأمتين المغضوب عليهم والضالين من اليهود والنصارى، فيرى أن قد ابتلي ببعض ذلك.

فأنفع ما للخاصة والعامة العلم بما يخلص النفوس من هذه الورطات وهو اتباع السيئات الحسنات. والحسنات ما ندب الله إليه على لسان خاتم النبيين من الأعمال والأخلاق والصفات.

[المصائب المكفرة للذنوب:]

ومما يزيل موجب الذنوب «المصائب المكفرة» وهي كل ما يؤلم من هم أو حزن أو أذى في مال أو عرض أو جسد أو غير ذلك، لكن ليس هذا من فعل العبد.

فلما قضى بهاتين الكلمتين حق الله: من عمل الصالح، وإصلاح الفاسد قال: ﴿وخالق الناس بخلق حسن﴾[2] وهو حق الناس.

= افتراق الأمم، ج ٢ ص ١٣٢٢؛ وأحمد في مسنده، ج ٣ ص ٨٤ وليس فيه «حذو القذة بالقذة».

(١) الآية ٦٩ من سورة التوبة.

(٢) سبق تخريج الحديث ص ٨٦.

[جماع الخلق الحسن مع الناس:]

وجماع الخلق الحسن مع الناس: أن تصل من قطعك بالسلام والإكرام والدعاء له والاستغفار والثناء عليه، والزيارة له وتعطي من حرمك من التعليم والمنفعة والمال، وتعفو عمن ظلمك في دم أو مال أو عرض. وبعض هذا واجب وبعضه مستحب.

[معنى الخلق العظيم:]

وأما الخلق العظيم الذي وصف الله به محمداً صلى الله عليه وسلم[١] فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقاً، هكذا قال مجاهد وغيره، وهو تأويل القرآن، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن»[٢] وحقيقته المبادرة إلى امتثال ما يحبه الله تعالى بطيب نفس وانشراح صدر.

[اسم التقوى وما يجمعه:]

وأما بيان أن هذا كله في وصية الله، فهو أن اسم تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به إيجاباً واستحباباً، وما نهى عنه تحريماً وتنزيهاً، وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد. لكن لما كان تارة يعني بالتقوى خشية العذاب المقتضية للانكفاف عن المحارم، جاء مفسراً في حديث معاذ، وكذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنهما الذي رواه الترمذي وصححه: «قيل: يا رسول الله! ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: تقوى

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ الآية ٤ من سورة القلم.

(٢) الحديث رواه: أحمد في مسنده، ج ٦ ص ١٨٨؛ ومسلم من حديث طويل في كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل، ج ١ ص ٥١٣.

الله وحسن الخلق. قيل: وما أكثر ما يدخل الناس النار؟ قال: الأجوفان: الفم والفرج»[1].

وفي الصحيح عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»[2] فجعل كمال الإيمان في كمال حسن الخلق. ومعلوم أن الإيمان كله تقوى الله.

[شمول التقوى:]

وتفصيل أصول التقوى وفروعها لا يحتمله هذا الموضع، فإنها الدين كله؛ لكن ينبوع الخير وأصله: إخلاص العبد لربه عبادة واستعانة كما في قوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾[3]، وفي قوله: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾[4]، وفي قوله: ﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾[5]، وفي قوله: ﴿فابتغوا عند الله الرزق، واعبدوه، واشكروا له﴾[6] بحيث يقطع العبد تعلق قلبه من المخلوقين انتفاعاً بهم أو عملاً لأجلهم، ويجعل همته ربه تعالى، وذلك

---

(١) الحديث رواه: الترمذي في أبواب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، ج ٣ ص ٢٤٥ وقال: «هذا حديث صحيح غريب»؛ وابن ماجه في كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، ج ٢ ص ١٤١٨؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٣٩٢.

(٢) الحديث رواه: أبو داود في كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، ج ٥ ص ٦٠؛ والترمذي في الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، ج ٢ ص ٣١٥ وزاد: «وخياركم خياركم لنسائهم» وقال: هذا حديث حسن صحيح؛ والدارمي في كتاب الرقائق، باب في حسن الخلق، ج ٢ ص ٣٢٣؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٤٧٢ وزاد «وخياركم خياركم لنسائهم»، ولم أجده في البخاري أو مسلم بهذا اللفظ.

(٣) الآية ٥ من سورة الفاتحة.

(٤) الآية ١٢٣ من سورة هود.

(٥) الآية ١٠ من سورة الشورى؛ والآية ٨٨ من سورة هود.

(٦) الآية ١٧ من سورة العنكبوت.

بملازمة الدعاء له في كل مطلوب من فاقة وحاجة ومخافة وغير ذلك، والعمل له بكل محبوب. ومن أحكم هذا فلا يمكن أن يوصف ما يعقبه ذلك.

[أفضل الأعمال بعد الفرائض:]

وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض، فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه وما يناسب أوقاتهم، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد، لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره: أن ملازمة ذكر الله دائماً هو أفضل ما شغل العبد به نفسه في الجملة، وعلى ذلك دل حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم: «سبق المفردون، قالوا يا رسول الله! ومن المفردون؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»[1] وفيما رواه أبو داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: ذكر الله»[2].

والدلائل القرآنية والإيمانية بصراً وخبراً ونظراً على ذلك كثيرة.

وأقل ذلك أن يلازم العبد الأذكار المأثورة عن معلم الخير وإمام

---

(١) الحديث رواه: مسلم في كتاب الذكر، باب الحث على ذكر الله تعالى، ج ٤ ص ٢٠٦٢؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٤١١؛ والترمذي في أبواب الدعوات، ج ٥ ص ٢٣٥.

(٢) هذا الحديث لم أجده في سنن أبي داود ولكن رواه مالك في الموطأ، في كتاب القرآن، باب ما جاء في ذكر الله تبارك وتعالى، ج ١ ص ٢١١؛ والترمذي في أبواب الدعوات، ج ٥ ص ١٢٧/١٢٨؛ وأحمد في مسنده، ج ٥ ص ١٩٥؛ وابن ماجه في كتاب الأدب، باب فضل الذكر، ج ٢ ص ١٢٤٥. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، قال الذهبي في التلخيص: صحيح. انظر المستدرك مع التلخيص، ج ١ ص ٤٩٦.

المتقين صلى الله عليه وسلم، كالأذكار المؤقتة في أول النهار وآخره، وعند أخذ المضجع، وعند الاستيقاظ من المنام، وأدبار الصلوات، والأذكار المقيدة مثل ما يقال عند الأكل والشرب واللباس والجماع، ودخول المنزل والمسجد والخلاء والخروج من ذلك، وعند المطر والرعد إلى غير ذلك، وقد صنفت له الكتب المسماة بعمل اليوم والليلة.

[أفضل الذكر:]

ثم ملازمة الذكر مطلقاً وأفضله «لا إله إلا الله». وقد تعرض أحوال يكون بقية الذكر مثل: «سبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله» أفضل منه.

ثم يعلم أن كل ما تكلم به اللسان وتصوره القلب مما يقرب إلى الله من تعلم علم وتعليمه، وأمر بمعروف ونهي عن منكر فهو من ذكر الله. ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض، أو جلس مجلساً يتفقه أو يفقه فيه الفقه الذي سماه الله ورسوله فقهاً فهذا أيضاً من أفضل ذكر الله. وعلى ذلك إذا تدبرت لم تجد بين الأولين في كلماتهم في أفضل الأعمال كبير اختلاف.

وما اشتبه أمره على العبد فعليه بالاستخارة المشروعة[1]، فما ندم من

---

(١) حديث الاستخارة رواه البخاري في كتاب التوحيد؛، باب قوله تعالى: ﴿قل هو القادر﴾ ج ١٣ ص ٣٧٥، عن جابر بن عبدالله ولفظه: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها كما يعلم السورة من القرآن يقول: إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل. اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علّام الغيوب. اللهم فإن كنت تعلم هذا الأمر ــ ثم يسميه بعينه ــ خيراً لي في عاجل أمري وآجله ــ قال: أوفي ديني ومعاشي وعاقبة أمري ــ فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه. اللهم إن كنت تعلم إنه شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ــ أو قال في عاجل أمري وآجله ــ فاصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضّني به.

استخار الله تعالى. وليكثر من ذلك ومن الدعاء، فإنه مفتاح كل خير، ولا يعجل فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي، وليتحر الأوقات الفاضلة: كآخر الليل، وأدبار الصلوات، وعند الأذان، ووقت نزول المطر، ونحو ذلك.

[أرجح المكاسب:]

وأما أرجح المكاسب: فالتوكل على الله، والثقة بكفايته، وحسن الظن به، وذلك أنه ينبغي للمهتم بأمر الرزق أن يلجأ فيه إلى الله ويدعوه، كما قال سبحانه فيما يأثر عنه نبيه: ﴿كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي! كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم﴾[1]، وفيما رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله[2] إذا انقطع، فإنه إن لم ييسره لم يتيسر»[3].

وقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿واسألوا الله من فضله﴾[4] وقال سبحانه: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾[5]، وهذا وإن كان في الجمعة فمعناه قائم في جميع الصلوات. ولهذا والله أعلم أمر النبي صلى الله عليه وسلم الذي يدخل المسجد أن يقول: «اللهم افتح لي أبواب رحمتك»، وإذا خرج أن يقول: «اللهم إني أسألك من

---

(١) الحديث رواه: مسلم في كتاب البر، باب تحريم الظلم، ج ٤ ص ١٩٩٤، وأحمد في مسنده، ج ٥ ص ١٦٠.

(٢) شِسْعُ النعل: قبالها الذي يُشدّ إلى زمامها والزمام السير الذي يعَقد فيه الشسع [لسان العرب، ج ٨ ص ١٨٠].

(٣) الحديث رواه الترمذي في أبواب الدعوات، ج ٥ ص ٢٤٢ وقال: هذا حديث غريب.

(٤) الآية ٣٢ من سورة النساء.

(٥) الآية ١٠ من سورة الجمعة.

فضلك»(١)، وقد قال الخليل صلى الله عليه وسلم: ﴿فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له﴾(٢) وهـذا أمر، والأمـر يقتضي الإيجاب فالاستعانة بالله واللجوء إليه في أمر الرزق وغيره أصل عظيم.

ثم ينبغي له أن يأخذ المال بسخاوة نفس ليبارك له فيه، ولا يأخذه بإشراف وهلع، بل يكون المال عنده بمنزلة الخلاء الذي يحتاج إليه من غير أن يكون له في القلب مكانة، والسعي فيه إذا سعى كإصلاح الخلاء. وفي الحديث المرفوع الذي رواه الترمذي وغيره: «من أصبح والدنيا أكبر همه، شتت الله عليه شمله، وفرق عليه ضيعته، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح والآخرة أكبر همه، جمع الله عليه شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»(٣).

وقال بعض السلف: أنت محتاج إلى الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فإن بدأت بنصيبك من الآخرة مر على نصيبك من الدنيا فانتظمه انتظاماً. قال الله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾(٤).

---

(١) الحديث رواه: مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب ما يقول إذا دخل المسجد، ج ١ ص ٤٩٤؛ وابن ماجه في كتاب المساجد والجماعات، باب الدعاء عند دخول المسجد، ج ١ ص ٢٥٤ مع اختلاف في اللفظ؛ وأبو داود في كتاب الصلاة، باب ما جاء في الصلاة عند دخول المسجد، ج ١ ص ٣١٨؛ والترمذي عن فاطمة، ج ١ ص ١٩٧؛ والنسائي في كتاب المساجد، باب القول عند دخول المسجد والخروج منه، ج ٢ ص ٥٣.

(٢) الآية ١٧ من سورة العنكبوت.

(٣) الحديث رواه الترمذي في أبواب صفة القيامة، ج ٤ ص ٥٧؛ وأحمد في مسنده، ج ٥ ص ١٨٣؛ وابن ماجه في كتاب الزهد، باب الهم بالدنيا، ج ٢ ص ١٣٧٥. قال في الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(٤) الآيات ٥٦ ـ ٥٨ من سورة الذاريات.

فأما تعيين مكسب على مكسب من صناعة أو تجارة أو بناية أو حراثة أو غير ذلك، فهذا يختلف باختلاف الناس، ولا أعلم في ذلك شيئاً عاماً، لكن إذا عنَّ للإنسان جهة فليستخر الله تعالى فيها الاستخارة المتلقاة عن معلم الخير صلى الله عليه وسلم[1]، فإن فيها من البركة ما لا يحاط به. ثم ما تيسر له فلا يتكلف غيره إلا أن يكون منه كراهة شرعية.

[الكتب التي يعتمد عليها في العلوم:]

وأما ما تعتمد عليه من الكتب في العلوم، فهذا باب واسع، وهو أيضاً يختلف باختلاف نشء الإنسان في البلاد، فقد يتيسر له في بعض البلاد من العلم أو من طريقه ومذهبه فيه ما لا يتيسر له في بلد آخر، لكن جماع الخير أن يستعين بالله سبحانه في تلقي العلم الموروث عن النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه هو الذي يستحق أن يسمى علماً، وما سواه إما أن يكون علماً فلا يكون نافعاً، وإما أن لا يكون علماً، وإن سمي به. ولئن كان علماً نافعاً فلا بد أن يكون في ميراث محمد صلى الله عليه وسلم ما يغني عنه مما هو مثله وخير منه. ولتكن همته فهم مقاصد الرسول في أمره ونهيه وسائر كلامه. فإذا اطمأن قلبه أن هذا هو مراد الرسول فلا يعدل عنه فيما بينه وبين الله تعالى ولا مع الناس، إذا أمكنه ذلك.

وليجتهد أن يعتصم في كل باب من أبواب العلم بأصل مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم. وإذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه الناس فليدع بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قام يصلي من الليل: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من

---

(١) تقدم حديث الاستخارة، ص ٩٣.

الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[1]، فإن الله تعالى قد قال فيما رواه عنه رسوله: ﴿يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم﴾[2].

وأما وصف «الكتب والمصنفين» فقد سمع منا في أثناء المذاكرة ما يسره الله سبحانه. وما في الكتب المصنفة المبوبة كتاب أنفع من «صحيح محمد بن إسماعيل البخاري» لكن هو وحده لا يقوم بأصول العلم. ولا يقوم بتمام المقصود للمتبحر في أبواب العلم، إذ لا بد من معرفة أحاديث أخر، وكلام أهل الفقه وأهل العلم في الأمور التي يختص بعلمها بعض العلماء. وقد أوعبت الأمة في كل فن من فنون العلم إيعاباً، فمن نور الله قلبه هداه بما يبلغه من ذلك، ومن أعماه لم تزده كثرة الكتب إلا حيرة وضلالاً، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي لبيد الأنصاري[3]: «أو ليست التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى؟ فماذا تغني عنهم؟»[4].

---

(١) الحديث رواه: مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، ج ١ ص ٥٣٤؛ وأبو داود في كتاب الصلاة، باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء، ج ١ ص ٤٨٧؛ والنسائي في كتاب قيام الليل، باب بأي شيء تستفتح صلاة الليل، ج ٣ ص ٢١٢؛ وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء في الدعاء إذا قام الرجل من الليل، ج ١ ص ٤٣١/٤٣٢؛ وأحمد في مسنده، ج ٦ ص ١٥٦.

(٢) الحديث رواه مسلم في كتاب البر، باب تحريم الظلم، ج ٤ ص ١٩٩٤؛ وابن ماجه في كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ج ٢ ص ١٤٢٢؛ والترمذي في أبواب صفة القيامة، ج ٤ ص ٦٧/٦٨؛ وأحمد في مسنده، ج ٥ ص ١٦٠.

(٣) أبو لبيد الأنصاري: هو زياد بن لبيد بن ثعلبة بن سنان بن عامر الأنصاري البياضي. ذكره موسى بن عقبة وغيره فيمن شهد العقبة وبدراً، وذكر الواقدي وغيره أنه كان عامل النبي صلى الله عليه وسلم على حضرموت، وولاه أبو بكر قتال أهل الردة من كندة [انظر الإصابة، ج ١ ص ٥٤٠].

(٤) الحديث رواه: الترمذي في أبواب العلم، باب ما جاء في ذهاب العلم، ج٤ ص ١٤٠ وقال: «هذا حديث حسن غريب».

فنسأل الله العظيم أن يرزقنا الهدى والسداد، ويلهمنا رشدنا، ويقينا شر أنفسنا، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب والحمد لله رب العالمين، وصلواته على أشرف المرسلين.

* * *

الفصل السادس

[الصبر الجميل والصفح الجميل والهجر الجميل:]

وسئل الشيخ الإمام، العالم العامل، الحبر الكامل، شيخ الإسلام ومفتي الأنام تقي الدين «ابن تيمية» أيده الله وزاده من فضله العظيم. عن (الصبر الجميل) و(الصفح الجميل) و(الهجر الجميل) وما أقسام التقوى والصبر الذي عليه الناس[1]؟

فأجاب، رحمه الله:

الحمد لله. أما بعد: فإن الله أمر نبيه بالهجر الجميل، والصفح الجميل والصبر الجميل. فـ«الهجر الجميل» هجر بلا أذى، و«الصفح الجميل» صفح بلا عتاب، و«الصبر الجميل» صبر بلا شكوى. قال يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾[2] مع قوله: ﴿فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون﴾[3]، فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر الجميل، ويروى عن موسى عليه الصلاة والسلام أنه كان يقول: «اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث وعليك التكلان»، ومن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت

---

(١) مسألة في الهجر الجميل والصفح الجميل وأقسام التقوى والصبر «من هامش مجموع الفتاوى، ج ١٠ ص ٦٦٦».

(٢) الآية ٨٦ من سورة يوسف.

(٣) الآية ١٨ من سورة يوسف.

رب المستضعفين وأنت ربـي، اللهم إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن ينزل بـي سخطك، أو يحل علي غضبك، لك العتبـى حتى ترضى»[1].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ في صلاة الفجر: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾[2] ويبكي حتى يسمـع نشيجه من آخـر الصفوف؛ بخلاف الشكوى إلى المخلوق. قرىء على الإمام أحمد في مرض موته أن طاووساً كره أنين المريض. وقال: إنه شكوى. فما أنَّ حتى مات. وذلك أن المشتكي طالب بلسان الحال، إما إزالة ما يضره أو حصول ما ينفعه والعبد مأمور أن يسأل ربه دون خلقه، كما قال تعالى: ﴿فإذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب﴾[3]، وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»[4].

ولا بد للإنسان من شيئين: طاعته بفعل المأمور، وترك المحظور، وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور. فالأول هو التقـوى، والثاني هو الصبر. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً﴾[5] إلى قوله: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط﴾[6]، وقال تعالى: ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا

---

(١) الحديث رواه: الطبراني، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات قاله الهيثمي [انظر مجمع الزوائد، ج ٦ ص ٣٥].

(٢) الآية ٨٦ من سورة يوسف.

(٣) الآيتان ٧ ــ ٨ من سورة الشرح.

(٤) الحديث رواه: الترمذي في أبواب صفة القيامة، ج ٣ ص ٧٦، وقال هذا حديث حسن صحيح؛ وأحمد في مسنده، ج ١ ص ٢٩٣.

(٥) الآية ١١٨ من سورة آل عمران.

(٦) الآية ١٢٠ من سورة آل عمران.

ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾(١)، وقال تعالى: ﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾(٢)، وقد قال يوسف: ﴿أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾(٣).

[وصية الشيخ عبدالقادر:]

ولهذا كان الشيخ عبدالقادر(٤) ونحوه من المشائخ المستقيمين يوصون في عامة كلامهم بهذين الأصلين: المسارعة إلى فعل المأمور، والتقاعد عن فعل المحظور، والصبر والرضا بالأمر المقدور. وذلك أن هذا الموضع غلط فيه كثير من العامة؛ بل ومن السالكين، فمنهم من يشهد القدر فقط ويشهد [الحقيقة الكونية] دون [الدينية] فيرى أن الله خالق كل شيء وربه، ولا يفرق بين ما يحبه الله ويرضاه، وبين ما يسخطه ويبغضه، وإن قدره وقضاه ولا يميز بين توحيد الألوهية، وبين توحيد الربوبية فيشهد الجمع الذي يشترك فيه جميع المخلوقات ــ سعيدها وشقيها ــ مشهد الجمع الذي يشترك فيه المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والنبي الصادق والمتنبىء

---

(١) الآية ١٢٥ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ١٨٦ من سورة آل عمران.

(٣) الآية ٩٠ من سورة يوسف.

(٤) هو عبدالقادر بن موسى بن عبدالله بن جنكي دوست الحسني، أبو محمد محيي الدين الجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي مؤسس الطريقة القادرية. من كبار الزهاد والمتصوفين ولد في جيلان (وراء طبرستان) سنة ٤٧١هـ وانتقل إلى بغداد شاباً سنة ٤٨٨هـ فاتصل بشيوخ العلم والتصوف وبرع في أساليب الوعظ وتفقه وسمع الحديث وقرأ الأدب واشتهر. توفي سنة ٥٦١هـ. [انظر ترجمته في: الأعلام، ج ٤ ص ٤٧؛ وفوات الوفيات، ج ٢ ص ٣٧٣؛ وشذرات الذهب، ج ٤ ص ١٩٨].

الكاذب، وأهل الجنة وأهل النار، وأولياء الله وأعداؤه، والملائكة المقربون والمردة الشياطين.

[أفهام خاطئة في القضاء والقدر:]

فإن هؤلاء كلهم يشتركون في هذا الجمع وهذه «الحقيقة الكونية» وهو أن الله ربهم وخالقهم ومليكهم لا رب لهم غيره. ولا يشهد الفرق الذي فرق الله [به] بين أوليائه وأعدائه، وبين المؤمنين والكافرين، والأبرار والفجار، وأهل الجنة والنار وهو توحيد الألوهية، وهو عبادته وحده لا شريك له، وطاعته وطاعة رسوله، وفعل ما يحبه ويرضاه، وهو ما أمر الله به ورسوله أمر إيجاب، أو أمر استحباب، وترك ما نهى الله عنه ورسوله، وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار والمنافقين بالقلب واليد واللسان. فمن لم يشهد هذه «الحقيقة الدينية» الفارقة بين هؤلاء وهؤلاء، ويكون مع أهل «الحقيقة الدينية» وإلا فهو من جنس المشركين، وهو شر من اليهود والنصارى.

[إقرار المشركين بالحقيقة الكونية:]

فإن المشركين يقرون بالحقيقة الكونية. إذ هم يقرون بأن الله رب كل شيء كما قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾[1]، وقال تعالى: ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون؟ سيقولون: لله، قل: أفلا تذكرون؟ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم؟ سيقولون: لله، قل: أفلا تتقون؟ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون؟ سيقولون: لله، قل: فأنى تسحرون؟﴾[2]، ولهذا قال سبحانه: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم

---

(١) الآية ٢٥ من سورة لقمان.

(٢) الآيات ٨٤ ــ ٨٩ من سورة (المؤمنون).

مشركون﴾[1]. قال بعض السلف: تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون الله وهم مع هذا يعبدون غيره.

فمن أقر بالقضاء والقدر دون الأمر والنهي الشرعيين فهو أكفر من اليهود والنصارى، فإن أولئك يقرون بالملائكة والرسل الذي جاءوا بالأمر والنهي الشرعيين لكن آمنوا ببعض وكفروا ببعض. كما قال تعالى: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً. أولئك هم الكافرون حقاً﴾[2].

وأما الذي يشهد «الحقيقة الكونية» وتوحيد الربوبية الشامل للخليقة ويقر أن العباد كلهم تحت القضاء والقدر، ويسلك هذه الحقيقة، فلا يفرق بين المؤمنين والمتقين الذين أطاعوا أمر الله الذي بعث به رسله، وبين من عصى الله ورسوله من الكفار والفجار، فهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى. لكن من الناس من قد لمحوا الفرق في بعض الأمور دون بعض، بحيث يفرق بين المؤمن والكافر، ولا يفرق بين البر والفاجر أو يفرق بين بعض الأبرار، وبين بعض الفجار، ولا يفرق بين آخرين اتباعاً لظنه وما يهواه. فيكون ناقص الإيمان بحسب ما سوى بين الأبرار والفجار، ويكون معه من الإيمان بدين الله تعالى الفارق بحسب ما فرق به بين أوليائه وأعدائه.

ومن أقر بالأمر والنهي الدينيين دون القضاء والقدر كان من القدرية كالمعتزلة وغيرهم الذين هم مجوس هذه الأمة، فهؤلاء يشبهون المجوس، وأولئك يشبهون المشركين الذين هم شر من المجوس.

---

(١) الآية ١٠٦ من سورة يوسف.

(٢) الآيتان ١٥٠ ـ ١٥١ من سورة النساء.

ومن أقر بهما وجعل الرب متناقضاً، فهو من أتباع إبليس الذي اعترض على الرب سبحانه وخاصمه كما نقل ذلك عنه.

فهذا التقسيم في القول والاعتقاد.

[أقسام الناس في العبادة:]

وكذلك هم في «الأحوال والأفعال». فالصواب منها حالة المؤمن الذي يتقي الله فيفعل المأمور، ويترك المحظور، ويصبر على ما يصيبه من المقدور، فهو عند الأمر والنهي والدين والشريعة ويستعين بالله على ذلك. كما قال تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾(١).

وإذا أذنب استغفر وتاب: لا يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات، ولا يرى للمخلوق حجة على رب الكائنات، بل يؤمن بالقدر ولا يحتج به، كما في الحديث الصحيح الذي فيه: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»(٢)، فيقر بنعمة الله عليه في الحسنات، ويعلم أنه هو هداه ويسره لليسرى، ويقر بذنوبه من السيئات ويتوب منها، كما قال بعضهم: أطعتك بفضلك، والمنة لك وعصيتك بعلمك، والحجة لك، فأسألك بوجوب حجتك علي

---

(١) الآية ٥ من سورة الفاتحة.

(٢) الحديث رواه: البخاري في كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار، ج ١١ ص ٩٧/٩٨؛ والترمذي في أبواب الدعوات، ج ٥ ص ١٣٥؛ والنسائي في كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من شر ما صنع، ج ٨ ص ٢٧٩/ ٢٨٠؛ وابن ماجه في كتاب الدعاء، باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى، ج ٢ ص ١٢٧٤؛ وأحمد في مسنده، ج ٤ ص ١٢٢؛ وأبو داود في كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، ج ٥ ص ٣١٢.

وانقطاع حجتي، إلا غفرت لي. وفي الحديث الصحيح الإلهي: «يا عبادي إنما هي أعمالكم، أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»(١).

وهذا له تحقيق مبسوط في غير هذا الموضع.

وآخرون قد يشهدون الأمر فقط: فتجدهم يجتهدون في الطاعة حسب الاستطاعة؛ لكن ليس عندهم من مشاهدة القدر ما يوجب لهم حقيقة الاستعانة والتوكل والصبر. وآخرون يشهدون القدر فقط فيكون عندهم من الاستعانة والتوكل والصبر ما ليس عند أولئك؛ لكنهم لا يلتزمون أمر الله ورسوله واتباع شريعته، وملازمة ما جاء به الكتاب والسنة من الدين فهؤلاء يستعينون الله ولا يعبدونه، والذين من قبلهم يريدون أن يعبدوه ولا يستعينوه؛ والمؤمن يعبده ويستعينه.

و «القسم الرابع» شر الأقسام، وهو من لا يعبده ولا يستعينه، فلا هو مع الشريعة الأمرية؛ ولا مع القدر الكوني. وانقسامهم إلى هذه الأقسام هو فيما يكون قبل وقوع المقدور من توكل واستعانة ونحو ذلك؛ وما يكون بعده من صبر ورضا ونحو ذلك. فهم في التقوى وهي طاعة الأمر الديني، والصبر على ما يقدر عليه من القدر الكوني أربعة أقسام.

[أقسام الناس في التقوى والصبر:]

(أحدها): أهل التقوى والصبر، وهم الذين أنعم الله عليهم من أهل السعادة في الدنيا والآخرة.

(والثاني): الذين لهم نوع من التقوى بلا صبر. مثل الذين يمتثلون

---

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب البر، باب تحريم الظلم، ج ٤ ص ١٩٩٤؛ وأحمد في مسنده، ج ٥ ص ١٦٠.

ما عليهم من الصلاة ونحوها، ويتركون المحرمات، لكن إذا أصيب أحدهم في بدنه بمرض ونحوه أو في ماله أو في عرضه، أو ابتلي بعدو يخيفه عظم جزعه وظهر هلعه.

و (الثالث): قوم لهم نوع من الصبر بلا تقوى، مثل الفجار الذين يصبرون على ما يصيبهم في مثل أهوائهم، كاللصوص والقطاع الذين يصبرون على الآلام في مثل ما يطلبونه من الغصب وأخذ الحرام؛ والكتاب وأهل الديوان الذين يصبرون على ذلك في طلب ما يحصل لهم من الأموال بالخيانة وغيرها. وكذلك طلاب الرئاسة والعلو على غيرهم يصبرون من ذلك على أنواع من الأذى التي لا يصبر عليها أكثر الناس، وكذلك أهل المحبة للصور المحرمة من أهل العشق وغيرهم يصبرون في مثل ما يهوونه من المحرمات على أنواع من الأذى والآلام. وهؤلاء هم الذين يريدون علواً في الأرض أو فساداً من طلاب الرئاسة والعلو على الخلق، ومن طلاب الأموال بالبغي والعدوان، والاستمتاع بالصور المحرمة نظراً أو مباشرة وغير ذلك يصبرون على أنواع من المكروهات، ولكن ليس لهم تقوى فيما تركوه من المأمور، وفعلوه من المحظور، وكذلك قد يصبر الرجل على ما يصيبه من المصائب: كالمرض والفقر وغير ذلك، ولا يكون فيه تقوى إذا قدر.

(وأما القسم الرابع) فهو شر الأقسام: لا يتقون إذا قدروا، ولا يصبرون إذا ابتلوا؛ بل هم كما قال الله تعالى: ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً، إذا مسه الشر جزوعاً، وإذا مسه الخير منوعاً﴾[1]، فهؤلاء تجدهم من أظلم الناس وأجبرهم إذا قدروا، ومن أذل الناس وأجزعهم إذا قهروا. إن قهرتهم ذلوا لك ونافقوك، وحابوك واسترحموك ودخلوا فيما يدفعون به عن أنفسهم من أنواع الكذب والذل وتعظيم المسؤول، وإن

---

(١) الآيات ١٩ ــ ٢١ من سورة المعارج.

قهروك كانوا من أظلم الناس وأقساهم قلباً، وأقلهم رحمة وإحساناً وعفواً، كما قد جربه المسلمون في كل من كان عن حقائق الإيمان أبعد: مثل التتار الذين قاتلهم المسلمون ومن يشبههم في كثير من أمورهم. وإن كان متظاهراً بلباس جند المسلمين وعلمائهم وزهادهم وتجارهم وصناعهم، فالاعتبار بالحقائق: «فإن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(١).

فمن كان قلبه وعمله من جنس قلوب التتار وأعمالهم كان شبيهاً لهم من هذا الوجه، وكان ما معه من الإسلام أو ما يظهره منه بمنزلة ما معهم من الإسلام وما يظهرونه منه، بل يوجد في غير التتار المقاتلين من المظهرين للإسلام من هو أعظم ردة وأولى بالأخلاق الجاهلية، وأبعد عن الأخلاق الإسلامية، من التتار.

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في خطبته: «خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»(٢). وإذا كان خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد، فكل من كان إلى ذلك أقرب وهو به أشبه كان إلى الكمال أقرب، وهو به أحق. ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه به أضعف، كان عن الكمال أبعد، وبالباطل أحق. والكامل هو من كان لله أطوع، وعلى ما يصيبه أصبر. فكلما كان أتبع لما يأمر الله به ورسوله وأعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه، وصبراً على ما قدره وقضاه، كان أكمل وأفضل. وكل من نقص عن هذين كان فيه من النقص بحسب ذلك.

---

(١) الحديث رواه: مسلم في كتاب البر، باب تحريم ظلم المسلم، ج ٤ ص ١٩٨٧؛ وابن ماجة في كتاب الزهد، باب القناعة، ج ٢ ص ١٣٨٧؛ والإمام أحمد في مسنده، ج ٢ ص ٢٨٥.

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه ص ٧٤.

[الصبر والتقوى في الكتاب والسنة:]

وقد ذكر الله «الصبر والتقوى» جميعاً في غير موضع من كتابه وبين أنه ينصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين المعاندين والمنافقين، وعلى من ظلمه من المسلمين، ولصاحبه تكون العاقبة. قال الله تعالى: ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾[1]، وقال الله تعالى: ﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾[2]، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً، ودوا ما عنتم، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون. ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله. وإذا لقوكم قالوا: آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ، قل موتوا بغيظكم، إن الله عليم بذات الصدور، إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط﴾[3]. وقال إخوة يوسف له: ﴿أإنك لأنت يوسف؟ قال: أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾[4].

وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموماً وخصوصاً، فقال تعالى: ﴿واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾[5].

---

(١) الآية ١٢٥ م سورة آل عمران.

(٢) الآية ١٨٦ من سورة آل عمران.

(٣) الآيات ١١٨ ـ ١٢٠ من سورة آل عمران.

(٤) الآية ٩٠ من سورة يوسف.

(٥) الآية ١٠٩ من سورة يونس.

وفي اتباع ما أوحي إليه التقوى كلها تصديقاً لخبر الله وطاعة لأمره. وقال تعالى: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين. واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والأبكار﴾[2]، وقال تعالى: ﴿فاصبر على ما يقولون: وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل﴾[3]، وقال تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾[4]، وقال تعالى: ﴿استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾[5]، فهذه مواضع قرن فيها الصلاة والصبر.

وقرن بين «الرحمة والصبر» في مثل قوله تعالى: ﴿وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾[6]. وفي الرحمة الإحسان إلى الخلق بالزكاة وغيرها؛ فإن القسمة أيضاً رباعية، إذ من الناس من يصبر ولا يرحم كأهل القوة والقسوة، ومنهم من يرحم ولا يصبر كأهل الضعف واللين: مثل كثير من النساء، ومن يشبههن، ومنهم من لا يصبر ولا يرحم كأهل القسوة والهلع. والمحمود هو الذي يصبر ويرحم، كما قال الفقهاء في المتولي: ينبغي أن يكون قوياً من غير عنف، ليناً من غير ضعف فبصبره يقوى، وبلينه يرحم، وبالصبر ينصر العبد؛ فإن النصر مع الصبر، وبالرحمة يرحمه الله تعالى. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما يرحم الله من عباده

---

(١) الآيتان ١١٤ ـ ١١٥ من سورة هود.
(٢) الآية ٥٥ من سورة غافر.
(٣) الآية ٣٩ من سورة ق.
(٤) الآية ٤٥ من سورة البقرة.
(٥) الآية ١٥٣ من سورة البقرة.
(٦) الآية ١٧ من سورة البلد.

الرحماء»[1]، وقال: «من لا يرحم لا يرحم»[2]، وقال: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»[3]، وقال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[4]. والله أعلم. انتهى.

* * *

(١) الحديث رواه: البخاري في كتاب الجنائز، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه» ج ٣ ص ١٥١؛ ومسلم في كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، ج ٢ ص ٦٣٦؛ وأبو داود في الجنائز، باب في البكاء على الميت، ج ٣ ص ٤٩٢؛ وابن ماجه في الجنائز، باب ما جاء في البكاء على الميت، ج ١ ص ٥٠٦؛ والنسائي في الجنائز، باب الأمر بالاحتساب والصبر عند نزول المصيبة، ج ٤ ص ٢٢؛ وأحمد في مسنده، ج ٥ ص ٢٠٤.

(٢) الحديث رواه: البخاري في كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، ج ١٠ ص ٤٢٦؛ ومسلم في كتاب الفضائل، باب رحمته صلى الله عليه وسلم، ج ٤ ص ١٨٠٩؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٢٢٨؛ والترمذي في أبواب البر، باب ما جاء في رحمة الناس، ج ٣ ص ٢١٦ وغيرهم.

(٣) الحديث رواه: الترمذي في أبواب البر، باب ماجاء في رحمة الناس، ج ٣ ص ٢١٦، وقال: هذا حديث حسن؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٣٠١؛ وأبو داود في كتاب الأدب، باب في الرحمة، ج ٥ ص ٢٣٢.

(٤) الحديث رواه: أبو داود في كتاب الأدب، باب في الرحمة، ج ٥ ص ٢٣١. ورواه الترمذي في أبواب البر، باب ما جاء في رحمة الناس، ج ٣ ص ٢١٧، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

الفصل السابع

[تفسير كلام القشيري في الرضا]

[معنى الرضا:]

وسئل شيخ الإسلام رحمه الله تعالى عما ذكر الأستاذ القشيري[1] في (باب الرضا) عن الشيخ أبي سليمان[2] أنه قال: الرضا أن لا يسأل الله الجنة، ولا يستعيذ من النار[3]، فهل هذا الكلام صحيح؟؟

فأجاب: الحمد لله رب العالمين: الكلام على هذا القول من وجهين:

(أحدهما): من جهة ثبوته عن الشيخ.

و (الثاني): من جهة صحته في نفسه وفساده.

أما «المقام الأول» فينبغي أن يعلم أن الأستاذ أبا القاسم لم يذكر هذا

---

(١) هو أبو القاسم، عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك بن طلحة بن محمد القشيري، الفقيه الشافعي. كان علّامة في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف. أصله من ناحية أُستوا من العرب الذين قدموا خراسان. ولد في شهر ربيع الأول سنة ست وسبعين وثلاثمائة، وتوفي صبيحة يوم الأحد قبل طلوع شمس سادس عشر ربيع الآخر سنة خمس وستين وأربعمائة بمدينة نيسابور [وفيات الأعيان، ج ٢ ص ٢٠٥].

(٢) هو عبدالرحمن بن أحمد بن عطية العبسي الداراني وداريا قرية من قرى دمشق، وهو زاهد مشهور رحل إلى بغداد وأقام بها مدة ثم عاد إلى الشام، وتوفي في بلده سنة ٢١٥هـ [حلية الأولياء، ج ٩ ص ٢٥٤؛ والأعلام، ج ٣ ص ٢٩٣/٢٩٤].

(٣) انظر الرسالة القشيرية، باب الرضا، ص ٩٠.

عن الشيخ أبي سليمان بإسناد، وإنما ذكره مرسلاً عنه، وما يذكره أبو القاسم في رسالته عن النبي صلى الله عليه والصحابة والتابعين والمشائخ وغيرهم. تارة يذكره بإسناد، وتارة يذكره مرسلاً، وكثيراً ما يقول: وقيل كذا ـ ثم الذي يذكره بإسناد تارة يكون إسناده صحيحاً، وتارة يكون ضعيفاً، بل موضوعاً. وما يذكره مرسلاً، ومحذوف القائل أولى، وهذا كما يوجد ذلك في مصنفات الفقهاء. فإن فيها من الأحاديث والآثار ما هو صحيح، ومنها ما هو ضعيف، ومنها ما هو موضوع.

[حال أحاديث كتب الرقائق:]

فالموجود في (كتب الرقائق والتصوف) من الآثار المنقولة فيها الصحيح وفيها الضعيف وفيها الموضوع. وهذا الأمر متفق عليه بين جميع المسلمين لا يتنازعون أن هذه الكتب فيها هذا وفيها هذا، بل نفس الكتب المصنفة في «التفسير» فيها هذا وهذا، مع أن أهل الحديث أقرب إلى معرفة المنقولات وفي كتبهم هذا وهذا فكيف غيرهم؟!

والمصنفون قد يكونون أئمة في الفقه أو التصوف أو الحديث ويروون هذا تارة لأنهم لم يعلموا أنه كذب، وهو الغالب على أهل الدين، فإنهم لا يحتجون بما يعلمون أنه كذب، وتارة يذكرونه وإن علموا أنه كذب، إذ قصدهم رواية ما روي في ذلك الباب، ورواية الأحاديث المكذوبة مع بيان كونها كذباً جائزاً. وأما روايتها مع الإمساك عن ذلك رواية عمل فإنه حرام عند العلماء، كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من حدث عني حديثاً وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»[(١)]. وقد فعل كثير من العلماء متأولين أنهم لم يكذبوا، وإنما نقلوا ما رواه غيرهم وهذا يسهل إذا رووه لتعريف أنه روي: لا لأجل العمل به ولا الاعتماد عليه.

(١) الحديث رواه الترمذي في أبواب العلم، باب من روى حديثاً وهو يرى أنه كذب، ج ٤ ص ١٤٣ وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

[رأي ابن تيمية في رسالة القشيري:]

و (المقصود هنا) أن ما يوجد في «الرسالة» وأمثالها: من كتب الفقهاء والصوفية وأهل الحديث من المنقولات عن النبي صلى الله عليه وسلم وغيره من السلف فيه: الصحيح والضعيف والموضوع، فالصحيح الذي قامت الدلالة على صدقه والموضوع الذي قامت الدلالة على كذبه، والضعيف الذي رواه من لم يعلم صدقه، إما لسوء حفظه وإما لاتهامه، ولكن يمكن أن يكون صادقاً فيه، فإن الفاسق قد يصدق والغالط قد يحفظ.

وغالب أبواب «الرسالة» فيها الأقسام الثلاثة. ومن ذلك (باب الرضا)[1] فإنه ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً»[2]. وهذا الحديث رواه مسلم في صحيحه، وإن كان الأستاذ لم يذكر أن مسلماً رواه لكنه رواه، بإسناد صحيح.

وذكر في أول هذا الباب حديثاً ضعيفاً ـ بل موضوعاً ـ وهو حديث جابر الطويل الذي رواه من حديث الفضل بن عيسى الرقاشي[3] عن محمد بن المنكدر[4] عن جابر[5]، فهو وإن كان أول حديث ذكره في الباب

---

(١) انظر ص ٨٨ من الرسالة القشيرية للقشيري.

(٢) سبق تخريج هذا الحديث ص ٧٨.

(٣) هو الفضل بن عيسى بن أبان الرقاشي، أبو عيسى البصري الواعظ، منكر الحديث ورمي بالقدر [تقريب التهذيب، ص ٣٧٤] طبعة دار نشر الكتب الإسلامية، كوجرانواله ـ باكستان.

(٤) هو محمد بن المنكدر بن عبدالله بن الهدير التميمي المدني، ثقة فاضل، مات سنة ١٣٠هـ أو بعدها [تهذيب التهذيب، ج ٩ ص ٤٧٣].

(٥) حديث جابر رواه العقيلي في الضعفاء، ج ٢ ص ٢٧٤/٢٧٥ وطرفه: «إن أهل الجنة بينا هم في نعيم إذ سطع نور فوق رءوسهم.. الخ» وقال عقبة: لا يتابع عليه ولا يعرف إلا به.

فإن أحاديث الفضل بن عيسى من أوهى الأحاديث وأسقطها، ولا نزاع بين الأئمة أنه لا يعتمد عليها ولا يحتج بها، فإن الضعف ظاهر عليها وإن كان هو لا يتعمد الكذب فإن كثيراً من الفقهاء لا يحتج بحديثهم لسوء الحفظ لا لاعتماد الكذب، وهذا الرقاشي اتفقوا على ضعفه كما يعرف ذلك أئمة هذا الشأن: حتى قال أيوب السختياني: لو ولد أخرس لكان خيراً له وقال سفيان بن عيينة[1]: لا شيء. وقال الإمام أحمد والنسائي: هو ضعيف. وقال يحيى بن معين[2]: رجل سوء. وقال أبو حاتم وأبو زرعة: منكر الحديث.

وكذلك ما ذكره من الآثار، فإنه قد ذكر آثاراً حسنة بأسانيد حسنة مثل ما رواه عن الشيخ أبي سليمان الداراني أنه قال: «إذا سلا العبد عن الشهوات فهو راض»[3] فإن هذا رواه عن شيخه أبي عبدالرحمن السلمي بإسناده، والشيخ أبو عبدالرحمن كانت له عناية بجمع كلام هؤلاء المشائخ وحكاياتهم، وصنف [في] الأسماء (كتاب طبقات الصوفية) و(كتاب زهاد السلف) وغير ذلك. وصنف في الأبواب (كتاب مقامات الأولياء) وغير ذلك ومصنفاته تشتمل على الأقسام الثلاثة.

وذكر عن الشيخ أبي عبدالرحمن أنه قال سمعت النصر آبادي يقول: من أراد أن يبلغ محل الرضا فيلزم ما جعل الله رضاه فيه[4] فإن هذا

---

(١) هو سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي، أبو محمد الكوفي ثم المكي، ثقة حافظ فقيه إمام حجة إلا أنه تغير حفظه بآخره وكان ربما دلس لكن عن الثقات من الطبقة الثامنة. ولد بالكوفة سنة ١٠٧هـ وتوفي بمكة سنة ١٩٨هـ [تقريب التهذيب، ص ١٣٨؛ والأعلام، ج ٣ ص ١٠٥].

(٢) هو يحيى بن معين بن عون المري بالولاء، أبو زكريا البغدادي، ثقة حافظ مشهور، إمام الجرح والتعديل من العاشرة ومولده بقرية نقيا قرب الأنبار سنة ١٥٨هـ وتوفي بالمدينة حاجاً سنة ٢٣٣هـ [تقريب التهذيب، ص ٣٧٩؛ والأعلام، ج ٨ ص ١٧٢].

(٣) انظر الرسالة القشيرية، ص ٨٩.

(٤) انظر الرسالة القشيرية، ص ٨٩.

الكلام في غاية الحسن، فإنه من لزم ما يرضي الله من امتثال أوامره واجتناب نواهيه لا سيما إذا قام بواجبها ومستحبها فإن الله يرضى عنه، كما أن من لزم محبوبات الحق أحبه الله، كما قال في الحديث الصحيح الذي في البخاري: «من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته»[1] الحديث. وذلك أن الرضا نوعان:

[نوعا الرضا:]

(أحدهما): الرضا بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. ويتناول ما أباحه الله من غير تعهد إلى المحظور، كما قال: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله، وقالوا حسبنا الله، سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون﴾[3]، وهذا الرضا واجب؛ ولهذا ذم من تركه بقوله: ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات، فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون، ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله، وقالوا: حسبنا الله. سيؤتينا الله من فضله ورسوله﴾[4].

(والنوع الثاني): الرضا بالمصائب: كالفقر والمرض والذل فهذا الرضا مستحب في أحد قولي العلماء، وليس بواجب، وقد قيل: أنه واجب، والصحيح أن الواجب هو الصبر. كما قال الحسن: الرضا غريزة، ولكن الصبر معول المؤمن. وقد روي في حديث ابن عباس أن النبي صلى

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع، ج ١١ ص ٣٤٠/٣٤١.
(٢) الآية ٦٢ من سورة التوبة.
(٣) الآية ٥٩ من سورة التوبة.
(٤) الآيتان ٥٨ ـ ٥٩ من سورة التوبة.

الله عليه وسلم قال: «إن استطعت أن تعمل بالرضا مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً»[1].

وأما الرضا بالكفر والفسوق والعصيان: فالذي عليه أئمة الدين أنه لا يرضى بذلك، فإن الله لا يرضاه كما قال: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾[2] وقال: ﴿والله لا يحب الفساد﴾[3]، وقال تعالى: ﴿فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾[4]، وقال تعالى: ﴿فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه، وأعد له عذاباً عظيماً﴾[5]، وقال: ﴿ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم﴾[6]، وقال تعالى: ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم﴾[7]، وقال تعالى: ﴿لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون﴾[8]، وقال تعالى: ﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم﴾[9] فإذا كان الله سبحانه لا يرضى لهم ما عملوه بل يسخطه ذلك، وهو يسخط عليهم، ويغضب عليهم، فكيف يشرع للمؤمن أن يرضى ذلك وأن لا يسخط ويغضب لما يسخط الله ويغضبه؟!.

---

(١) لم أعثر عليه.

(٢) الآية ٧ من سورة الزمر.

(٣) الآية ٢٠٥ من سورة البقرة.

(٤) الآية ٩٦ من سورة التوبة.

(٥) الآية ٩٣ من سورة النساء.

(٦) الآية ٢٨ من سورة محمد.

(٧) الآية ٦٨ من سورة التوبة.

(٨) الآية ٨٠ من سورة المائدة.

(٩) الآية ٥٥ من سورة الزخرف.

[أفهام في الرضا والإرادة:]

وإنما ضل هنا «فريقان» من الناس:

«قوم» من أهل الكلام المنتسبين إلى السنة في مناظرة القدرية ظنوا أن محبة الحق ورضاه وغضبه وسخطه يرجع إلى إرادته، وقد علموا أنه مريد لجميع الكائنات خلافاً للقدرية. وقالوا: هو أيضاً محب لها مريد لها، ثم أخذوا يحرفون الكلم عن مواضعه. فقالوا: لا يحب الفساد، بمعنى لا يريد الفساد: أي لا يريده للمؤمنين، ولا يرضى لعباده الكفر: أي لا يريده لعباده المؤمنين. وهذا غلط عظيم؛ فإن هذا عندهم بمنزلة أن يقال: لا يحب الإيمان، ولا يرضى لعباده الإيمان: أي لا يريده للكافرين، ولا يرضاه للكافرين، وقد اتفق أهل الإسلام على أن ما أمر الله به فإنه يكون مستحباً يحبه. ثم قد يكون مع ذلك واجباً، وقد يكون مستحباً ليس بواجب سواء فعل أو لم يفعل. والكلام على هذا مبسوط في غير هذا الموضع.

(والفريق الثاني): من غالطي المتصوفة شربوا من هذه العين: فشهدوا أن الله رب الكائنات جميعها، وعلموا أنه قدر على كل شيء وشاءه، وظنوا أنهم لا يكونون راضين حتى يرضوا بكل ما يقدره ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان، حتى قال بعضهم: المحبة نار تحرق من القلب كل ما سوى مراد المحبوب. قالوا: والكون كله مراد المحبوب، وضل هؤلاء ضلالاً عظيماً، حيث لم يفرقوا بين الإرادة الدينية والكونية، والإذن الكوني والديني والأمر الكوني والديني والبعث الكوني والديني، والإرسال الكوني والديني. كما بسطناه في غير هذا الموضع.

وهؤلاء يؤول الأمر بهم إلى أن لا يفرقوا بين المأمور والمحظور وأولياء الله وأعدائه، والأنبياء والمتقين. ويجعلون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، ويجعلون المتقين كالفجار، ويجعلون المسلمين

كالمجرمين، ويعطلون الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والشرائع وربما سموا هذا «حقيقة» ولعمري إنه حقيقة كونية، لكن هذه الحقيقة الكونية قد عرفها عباد الأصنام، كما قال: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾[1]، وقال تعالى: ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون، سيقولون لله، قل أفلا تذكرون؟!﴾[2] الآيات.

فالمشركون الذين يعبدون الأصنام كانوا مقرين بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، فمن كان هذا منتهى تحقيقه كان أقرب أن يكون كعباد الأصنام.

و«المؤمن» إنما فارق الكفر بالإيمان بالله وبرسله، وبتصديقهم فيما أخبروا، وطاعتهم فيما أمروا، واتباع ما يرضاه الله ويحبه دون ما يقدره ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان، ولكن يرضى بما أصابه من المصائب، لا بما فعله من المعائب. فهو من الذنوب يستغفر. وعلى المصائب يصبر. فهو كما قال تعالى: ﴿فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك﴾[3] فيجمع بين طاعة الأمر والصبر على المصائب. كما قال تعالى: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾[5]، وقال يوسف: ﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾[6].

---

(١) الآية ٢٥ من سورة لقمان.
(٢) الآيتان ٨٤ ــ ٨٥ من سورة (المؤمنون).
(٣) الآية ٥٥ من سورة غافر.
(٤) الآية ١٢٠ من سورة آل عمران.
(٥) الآية ١٨٦ من سورة آل عمران.
(٦) الآية ٩٠ من سورة يوسف.

[مما روي في الرضا عن الفضيل والجنيد:]

و «المقصود هنا»: أن ما ذكره القشيري عن النصر آبادي من أحسن الكلام حيث قال: من أراد أن يبلغ محل الرضا فليلزم ما جعل الله رضاه فيه[1]، وكذلك قول الشيخ أبـي سليمان: إذا سـلا العبد عن الشهوات فهو راض[2]؛ وذلك أن العبد إنما يمنعه من الرضا والقناعة طلب نفسه لفضول شهواتها، فإذا لم يحصل سخط، فإذا سلا عن شهوات نفسه رضي بما قسم الله له من الرزق، وكذلك ما ذكره عن الفضيل بـن عياض أنه قال لبشر الحافي[3]: الرضا أفضل من الزهد في الدنيا؛ لأن الراضي لا يتمنى فـوق منزلتـه، كلام حسن. لكن أشـك في سماع بشـر الحـافي من الفضيـل.

وكذلك ما ذكره معلقاً قال: قال الشبلي بين يدي الجنيد: لا حول ولا قوة إلا بالله. فقال الجنيد: قولك ذا ضيق صدر، وضيق الصدر لترك الرضا بالقضاء[4]. فإن هذا من أحسن الكلام. وكان الجنيد ــ رضي الله عنه ــ سيد الطائفة، ومن أحسنهم تعليماً وتأديباً وتقويماً ــ وذلك أن هذه الكلمة كلمة استعانة؛ لا كلمة استرجاع، وكثير من الناس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع، ويقولها جزعاً لا صبراً. فالجنيد أنكر على الشبلي حاله في سبب قوله له، إذ كانت حالاً ينافي الرضا، ولو قالها على الوجه المشروع لم ينكر عليه.

---

(١) انظر الرسالة القشيرية، ص ٨٩.

(٢) انظر الرسالة القشيرية، ص ٨٩.

(٣) هو بشر بن الحارث بن علي بن عبدالرحمن المروزي، أبو نصر المعروف بالحافي: من كبار الصالحين، له في الزهد والورع أخبار، وهو من ثقات رجال الحديث، من أهل مرو، ولد سنة ١٥٠هـ وتوفي ببغداد سنة ٢٢٧هـ [الأعلام، ج ٢ ص ٥٤].

(٤) انظر الرسالة القشيرية، ص ٨٩ ــ ٩٠.

[مما روي في الرضا عن موسى عليه السلام:]

وفيها ذكره آثار ضعيفة مثل ما ذكره معلقاً. (قال) وقيل: قال موسى: «إلهي! دلني على عمل إذا عملته رضيت عني. فقال: إنك لا تطيق ذلك، فخر موسى ساجداً متضرعاً، فأوحى الله إليه: يا ابن عمران! رضائي في رضاك عني»[1]، فهذه الحكاية الإسرائيلية فيها نظر؛ فإنه قد يقال: لا يصلح أن يحكى مثلها عن موسى بن عمران. ومعلوم أن هذه الإسرائيليات ليس لها إسناد، ولا يقوم بها حجة في شيء من الدين، إلا إذا كانت منقولة لنا نقلاً صحيحاً، مثل ما ثبت عن نبينا أنه حدثنا به عن بني إسرائيل، ولكن منه ما يعلم كذبه مثل هذه؛ فإن موسى من أعظم أولي العزم، وأكابر المسلمين؛ فكيف يقال: أنه لا يطيق أن يعمل ما يرضى الله به عنه؟! والله تعالى راض عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان. أفلا يرضى عن موسى بن عمران كليم الرحمن؟! وقال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً. رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾[2]، ومعلوم أن موسى بن عمران عليه السلام من أفضل الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

ثم إن الله خص موسى بمزية فوق الرضا، حيث قال: ﴿وألقيت عليك محبة مني، ولتصنع على عيني﴾[3]. ثم إن قوله له في الخطاب: يا ابن عمران! مخالف لما ذكره الله من خطابه في القرآن، حيث قال: يا موسى، وذلك الخطاب فيه نوع غض منه كما يظهر. ومثل ما ذكر أنه قيل: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري

---

(١) انظر الرسالة القشيرية، ص ٨٩.
(٢) الآيتان ٧ ــ ٨ من سورة البينة.
(٣) الآية ٣٩ من سورة طه.

أما بعد: فإن الخير كله في الرضا فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر. فهذا الكلام كلام حسن، وإن لم يعلم إسناده.

وإذا تبين أن فيما ذكره مسنداً ومرسلاً ومعلقاً ما هو صحيح وغيره. فهذه الكلمة لم يذكرها عن أبـي سليمان إلا مرسلة. وبمثل ذلك لا تثبت عن أبـي سليمان باتفاق الناس؛ فإنه وإن قال بعض الناس: إن المرسل حجة، فهذا لم يعلم أن المرسل هو مثل الضعيف وغير الضعيف. فأما إذا عرف ذلك فلا يبقى حجة باتفاق العلماء. كمن علم أنه تارة يحفظ الإسناد وتارة يغلط فيه.

[مما قال أبو سليمان في الرضا:]

والكتب المسندة في أخبار هؤلاء المشائخ وكلامهم مثل كتاب (حلية الأولياء) لأبـي نعيم و(طبقات الصوفية) لأبـي عبدالرحمن و(صفوة الصفوة) لابن الجوزي. وأمثال ذلك لم يذكروا فيها هذه الكلمة عن الشيخ أبـي سليمان. ألا ترى الذي رواه عنه مسنداً حيث قال: قال لأحمد بن أبـي الحواري[1]: يا أحمد! لقد أوتيت من الرضا نصيباً لو ألقاني في النار لكنت بذلك راضياً[2]. فهذا الكلام مأثور عن أبـي سليمان بالإسناد، ولهذا أسنده عنه القشيري من طريق شيخه أبـي عبدالرحمن؛ بخلاف تلك الكلمة فإنها لم تسند عنه. فلا أصل لها عن الشيخ أبـي سليمان.

ثم إن القشيري قرن هذه الكلمة الثانية عن أبـي سليمان بكلمة أحسن منها فإنه قبل أن يرويها قال: وسئل أبو عثمان الحيري النيسابوري

---

(١) يكنى أبا الحسن واسم أبـي الحواري ميمون سكن دمشق وكان له ابن يقال له محمد يشبهه في الورع والزهد، وأبوه أبو الحواري من أهل الورع أيضاً، توفي في سنة ثلاثين ومائتين (صفة الصفوة، ج ٤ ص ٢٣٨).

(٢) انظر الرسالة القشيرية، ص ٩٠.

عن قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أسألك الرضا بعد القضاء»[1]، فقال: لأن الرضا بعد القضاء هو الرضا. فهذا الذي قاله الشيخ أبو عثمان كلام حسن سديد. ثم أسند بعد هذا عن الشيخ أبي سليمان أنه قال: أرجو أن أكون قد عرفت طرفاً من الرضا. لو أنه أدخلني النار لكنت بذلك راضياً.

[ما قاله أبو سليمان عزم على الرضا:]

فتبين بذلك أن ما قاله أبو سليمان ليس هو رضا. وإنما هو عزم على الرضا، وإنما الرضا ما يكون بعد القضاء، وإن كان هذا عزماً فالعزم قد يدوم، وقد ينفسخ، وما أكثر انفساخ العزائم خصوصاً عزائم الصوفية؛ ولهذا قيل لبعضهم: بماذا عرفت ربك؟ قال: بفسخ العزائم ونقض الهمم. وقد قال تعالى لمن هو أفضل من هؤلاء المشائخ: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾[2]، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون، إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾[3]، وفي الترمذي أن بعض الصحابة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: «لو علمنا أي العمل أحب إلى الله لعملناه فأنزل الله تعالى هذه الآية»[4]، وقد قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، وقالوا: ربنا لم كتبت علينا القتال؟ لولا

---

(١) الحديث رواه: النسائي في كتاب السهو، باب نوع من الدعاء، ج ٣ ص ٥٥؛ وأحمد في مسنده، ج ٥ ص ١٩١.

(٢) الآية ١٤٣ من سورة آل عمران.

(٣) الآيات ٢ ـ ٤ من سورة الصف.

(٤) رواه الترمذي في تفسير القرآن، باب تفسير سورة الصف، ج ٥ ص ٨٥.

أخرتنا إلى أجل قريب﴾(1) الآية. فهؤلاء الذين كانوا قد عزموا على الجهاد وأحبوه لما ابتلوا به كرهوه وفروا منه، وأين ألم الجهاد من ألم النار؟ وعذاب الله الذي لا طاقة لأحد به، ومثل هذا ما يذكرونه عن سمنون(2) المحب أنه كان يقول:

وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فاختبرني

فأخذه العسر من ساعته: أي حصر بوله؛ فكان يدور على المكاتب ويفرق الجوز على الصبيان ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب.

[امتحان سمنون:]

وحكى أبو نعيم الأصبهاني عن أبي بكر الواسطي أنه قال سمنون: يا رب قد رضيت بكل ما تقضيه عليّ فاحتبس بوله أربعة عشر يوماً؛ فكان يتلوى كما تتلوى الحية، يتلوى يميناً وشمالاً؛ فلما أطلق بوله، قال: رب قد تبت إليك. قال أبو نعيم: فهذا الرضا الذي ادعى سمنون ظهر غلطه فيه بأدنى بلوى، مع أن سمنوناً هذا كان يضرب به المثل، وله في المحبة مقام مشهور، حتى روي عن إبراهيم بن فاتك أنه قال: رأيت سمنوناً يتكلم على الناس في المسجد الحرام، فجاء طائر صغير فلم يزل يدنو منه حتى جلس على يده، ثم لم يزل يضرب بمنقاره الأرض حتى سقط منه دم؛ ومات الطائر. وقال رأيته يوماً يتكلم في المحبة فاصطفقت قناديل المسجد وكسر بعضها بعضاً.

---

(1) الآية ٧٧ من سورة النساء.

(2) هو سمنون بن حمزة الخواص، أبو الحسن أو أبو بكر: صوفي ناسك من الشعراء. له مقطوعات في غاية الجودة وهو من أهل البصرة سكن بغداد وتوفي بها سنة ٢٩٠هـ [انظر الأعلام، ج ٣ ص ١٤٠؛ وحلية الأولياء لأبي نعيم، ج ١٠ ص ٣٠٩].

[قول رويم والفضيل والأعرابي:]

وقد ذكر القشيري في (باب الرضا) عن رويم المقري[1] رفيق سمنون حكاية تناسب هذا، حيث قال: قال رويم: إن الراضي لو جعل جهنم عن يمينه ما سأل الله أن يحولها عن يساره[2]؛ فهذا يشبه قول سمنون: فكيف ما شئت فامتحني. وإذا لم يطق الصبر على عسر البول؛ أفيطيق أن تكون النار عن يمينه؟!

والفضيل بن عياض كان أعلى طبقة من هؤلاء وابتلي بعسر البول فغلبه الألم حتى قال: بحبي لك إلا فرجت عني، ففرج عنه.

و «رويم» وإن كان من رفقاء الجنيد فليس هو عندهم من هذه الطبقة، بل الصوفية يقولون: إنه رجع إلى الدنيا وترك التصوف، حتى روي عن جعفر الخلدي صاحب الجنيد أنه قال: من أراد أن يستكتم سراً فليفعل، كما فعل رويم، كتم حب الدنيا أربعين سنة فقيل: وكيف يتصور ذلك؟ قال: ولي إسماعيل بن إسحق القاضي[3] قضاء بغداد وكان بينهما مودة أكيدة، فجذبه إليه، وجعله وكيلاً على بابه فترك لبس التصوف ولبس الخز والقصب والديبقي وأكل الطيبات، وبنى الدور، وإذا هو كان يكتم حب الدنيا ما لم يجدها، فلما وجدها أظهر ما كان يكتم من حبها. هذا مع أنه ــ رحمه الله ــ كان له من العبادات ما هو معروف وكان على مذهب داود.

وهذه الكلمات التي تصدر عن صاحب حال لم يفكر في لوازم أقواله

---

(١) هو رويم بن أحمد بن يزيد بن رويم: صوفي شهير من جلة مشايخ بغداد، توفي عام ٣٣٠هـ. [انظر الأعلام، ج ٣ ص ٣٧].

(٢) انظر الرسالة القشيرية، ص ٨٩.

(٣) هو إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد الجهضمي الأزدي، فقيه على مذهب مالك، جليل التصانيف من بيت علم وفضل، ولد في البصرة سنة ٢٠٠هـ واستوطن بغداد، وولي قضاء بغداد والمدائن والنهروانات ثم ولي قضاء القضاة إلى أن توفي ببغداد سنة ٢٨٢هـ [الأعلام، ج ١ ص ٣١٠].

وعواقبها لا تجعل طريقة ولا تتخذ سبيلاً، ولكن قد يستدل بها على ما لصاحبها من الرضا والمحبة، ونحو ذلك، وما معه من التقصير في معرفة حقوق الطريق، وما يقدر عليه من التقوى والصبر وما لا يقدر عليه من التقوى والصبر، والرسل صلوات الله عليهم أعلم بطريق سبيل الله وأهدى وأنصح، فمن خرج عن سنتهم وسبيلهم كان منقوصاً مخطئاً محروماً، وإن لم يكن عاصياً أو فاسقاً أو كافراً.

ويشبه هذا: الأعرابي الذي دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وهو مريض كالفرخ فقال: «هل كنت تدعو الله بشيء، قال: كنت أقول: اللهم ما كنت معذبني به في الآخرة فاجعله في الدنيا، فقال: سبحان الله لا تستطيعه ولا تطيقه، هلا قلت: ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار»[1]، فهذا أيضاً حمله خوفه من عذاب النار، ومحبته لسلامة عاقبته على أن يطلب تعجيل ذلك في الدنيا، وكان مخطئاً في ذلك غالطاً. والخطأ والغلط مع حسن القصد وسلامته، وصلاح الرجل وفضله ودينه وزهده وورعه وكراماته كثير جداً، فليس من شرط ولي الله أن يكون معصوماً من الخطأ والغلط، بل ولا من الذنوب، وأفضل أولياء الله بعد الرسل أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: له لما عبر الرؤيا «أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً»[2].

---

(١) الحديث رواه: مسلم في كتاب الذكر، باب كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة في الدنيا ج ٤ ص ٢٠٦٩ والترمذي في أبواب الدعوات، باب ما جاء في عقد التسبيح باليد؛ ج ٥ ص ١٨٣/١٨٤؛ وأحمد في مسنده، ج ٣ ص ١٠٧.

(٢) الحديث رواه: البخاري في كتاب التعبير، باب من لم ير الرؤيا لأول عابر، ج ١٢ ص ٤٣١؛ ومسلم في كتاب الرؤيا، باب في تأويل الرؤيا، ج ٤ ص ١٧٧٧/١٧٧٨؛ وأبو داود في كتاب الأيمان والنذور، باب في القسم هل يكون يميناً، ج ٣ ص ٥٧٩؛ وابن ماجه في كتاب تعبير الرؤيا، ج ٢ ص ١٢٩٠؛ والدارمي في الرؤيا، باب في رؤية الرب تعالى في المنام، ج ٢ ص ١٢٩؛ وأحمد في مسنده، ج ١ ص ٢٣٦.

ويشبه ــ والله أعلم ــ أن أبا سليمان لما قال هذه الكلمة: ــ لو ألقاني في النار لكنت بذلك راضياً ــ أن يكون بعض الناس حكاه بما فهمه من المعنى أنه قال: الرضا أن لا تسأل الله الجنة، ولا تستعيذه من النار. وتلك الكلمة التي قالها أبو سليمان مع أنها لا تدل على رضاه بذلك، ولكن تدل على عزمه بالرضا بذلك، فنحن نعلم أن هذا العزم لا يستمر بل ينفسخ، وأن هذه الكلمة كان تركها أحسن من قولها؛ وأنها مستدركة، كما استدركت دعوى سمنون ورويم وغير ذلك؛ فإن بين هذه الكلمة وتلك فرقاً عظيماً. فإن تلك الكلمة مضمونها: إن من سأل الله الجنة. واستعاذ من النار. لا يكون راضياً.

وفرق بين من يقول: أنا إذا فعل كذا كنت راضياً، وبين من يقول: لا يكون راضياً إلا من يطلب خيراً، ولا يهرب من شر؛ وبهذا وغيره يعلم أن الشيخ أبا سليمان كان أجل من أن يقول مثل هذا الكلام، فإن الشيخ أبا سليمان من أجلاء المشائخ، وساداتهم ومن اتبعهم للشريعة حتى أنه قال: إنه ليمر بقلبي النكتة من نكت القوم، فلا أقبلها إلا بشاهدين: الكتاب والسنّة. فمن لا يقبل نكت قلبه إلا بشاهدين، يقول مثل هذا الكلام؟! وقال الشيخ أبو سليمان أيضاً: ليس لمن ألهم شيئاً من الخير أن يفعله، حتى يسمع فيه بأثر فإذا سمع فيه بأثر كان نوراً على نور، بل صاحبه أحمد بن أبي الحواري كان من اتبع المشائخ للسنة، فكيف أبو سليمان؟!

وتمام تزكية أبي سليمان من هذا الكلام تظهر بالكلام في «المقام الثاني» وهو قول القائل كائناً من كان: الرضا أن لا تسأل الله الجنة، ولا تستعيذه من النار.

[ظن بعض الناس أن الجنة التنعم بالمخلوق:]

ونقدم قبل ذلك مقدمة يتبين بها أصل ما وقع في مثل هذه الكلمات من الاشتباه والاضطراب، وذلك أن قوماً كثيراً من الناس: من المتفقهة والمتصوفة والمتكلمة، وغيرهم ظنوا أن الجنة التنعم بالمخلوق من أكل وشرب ونكاح ولباس، وسماع أصوات طيبة، وشم روائح طيبة ولم يدخلوا في مسمى الجنة نعيماً غير ذلك، ثم صاروا ضربين:

[بعض المذاهب في رؤية الرب:]

«ضرب» أنكروا أن يكون المؤمنون يرون ربهم. كما ذهب إلى ذلك الجهمية من المعتزلة وغيرهم.

«ومنهم» من أقر بالرؤية، إما الرؤية التي أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، وإما برؤية فسروها بزيادة كشف أو علم، أو جعلها بحاسة سادسة، ونحو ذلك من الأقوال التي ذهب إليها ضرار بن عمرو[1] وطوائف من أهل الكلام المنتسبين إلى نصر أهل السنة في مسألة الرؤية، وإن كان ما يثبتونه من جنس ما تنفيه المعتزلة والضرارية. والنزاع بينهم لفظي، ونزاعهم مع أهل السنة معنوي، ولهذا كان بشر وأمثاله يفسرون الرؤية بنحو من تفسير هؤلاء.

و (المقصود هنا) أن مثبتة (الرؤية) منهم من أنكر أن يكون المؤمن ينعم بنفس رؤيته ربه. قالوا: لأنه لا مناسبة بين المحدث والقديم كما ذكر

---

(١) هو ضرار بن عمرو الغطفاني: قاض من كبار المعتزلة، طمع برياستهم في بلده، فلم يدركها فخالفهم، فكفروه وطردوه. توفي نحو عام ١٩٠هـ [الأعلام، ج ٣ ص ٢١٥].

ذلك الأستاذ أبو المعالي الجويني[1] في «الرسالة النظامية»، وكما ذكره أبو الوفاء بن عقيل[2] في بعض كتبه ونقلوا عن ابن عقيل أنه سمع رجلاً يقول: أسألك لذة النظر إلى وجهك. فقال: يا هذا هب أن له وجهاً، أله وجه يتلذذ بالنظر إليه؟! وذكر أبو المعالي: أن الله يخلق لهم نعيماً ببعض المخلوقات مقارناً للرؤية، فأما النعيم بنفس الرؤية فانكره وجعل هذا من أسرار التوحيد.

[مذهب سلف الأمة في رؤية الرب:]

وأكثر مثبتي الرؤية يثبتون تنعم المؤمنين برؤية ربهم، وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها، ومشائخ الطريق، كما في الحديث الذي في النسائي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك من غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة. اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة

---

(١) هو عبدالملك بن عبدالله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي ركن الدين الملقب بإمام الحرمين، أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي. ولد في جوين (من نواحي نيسابور سنة ٤١٩هـ ورحل إلى بغداد فمكة حيث جاور أربع سنين وذهب إلى المدينة فأفتى ودرّس جامعاً طرق المذاهب ثم عاد إلى نيسابور، توفي سنة ٤٧٨هـ [الأعلام، ج ٤ ص ١٦٠؛ ووفيات الأعيان، ج ٣ ص ١٦٧].

(٢) هو علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الظفري، أبو الوفاء، ويعرف بابن عقيل: عالم العراق وشيخ الحنابلة ببغداد في وقته. ولد سنة ٤٣١هـ وتوفي سنة ٥١٣هـ [الأعلام، ج ٤ ص ٣١٣؛ وشذرات الذهب، ج ٤ ص ٣٥].

مهتدين»[1]. وفي صحيح مسلم وغيره عن صهيب، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة! إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا؟ ويثقل موازيننا؟ ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب؛ فينظرون إليه فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه»[2].

وكلما كان الشيء أحب كانت اللذة بنيله أعظم، وهذا متفق عليه بين السلف والأئمة ومشائخ الطريق، كما روي عن الحسن البصري أنه قال: لو علم العابدون بأنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت نفوسهم في الدنيا شوقاً إليه، وكلامهم في ذلك كثير.

ثم هؤلاء الذين وافقوا السلف والأئمة والمشائخ على التنعم بالنظر إلى الله تعالى، تنازعوا في «مسألة المحبة» التي هي أصل ذلك؛ فذهب طوائف من[3] والفقهاء إلى أن الله لا يُحَبُّ نَفْسُهُ، وإنما المحبة طاعته وعبادته؛ وقالوا: هو أيضاً لا يحب عباده المؤمنين؛ وإنما محبته إرادته للإحسان إليهم وولايتهم. ودخل في هذا القول من انتسب إلى نصر السنة من أهل الكلام، حتى وقع في طوائف من أصحاب مالك والشافعي وأحمد: كالقاضي أبي بكر والقاضي أبي يعلى وأبي المعالي الجويني وأمثال هؤلاء.

---

(١) الحديث رواه النسائي في كتاب الدعاء بعد الذكر، باب نوع آخر من الدعاء، ج ٣ ص ٥٤/٥٥؛ وأحمد في مسنده، ج ٤ ص ٢٦٤.

(٢) الحديث رواه: مسلم في كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، ج ١ ص ١٦٣؛ والترمذي في أبواب صفة الجنة، باب ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى، ج ٤ ص ٩٢؛ وأحمد في مسنده، ج ٤ ص ٣٣٢؛ وابن ماجه في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، ج ١ ص ٦٧.

(٣) بياض بالأصل «من هامش مجموع الفتاوى، ج ١٠ ص ٦٩٧».

[من أنكر صفة المحبة ولذة النظر إلى الله :]

وهذا في الحقيقة شعبة من التجهم والاعتزال؛ فإن أول من أنكر «المحبة» في الإسلام الجعد بن درهم[1]، أستاذ الجهم بن صفوان[2]؛ فضحى به خالد بن عبدالله القسري. وقال: أيها الناس، ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعدبن درهم، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً؛ ولم يكلم موسى تكليماً ثم نزل فذبحه.

[ما دل عليه الكتاب والسنة في ذلك :]

والذي دل عليه الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ومشائخ الطريق: أن الله يحب ويحب. ولهذا وافقهم على ذلك من تصوف من أهل الكلام: كأبي القاسم القشيري؛ وأبي حامد الغزالي، وأمثالهما. ونصر ذلك أبو حامد في «الإحياء» وغيره. وكذلك أبو القاسم ذكر ذلك في «الرسالة» على طريق الصوفية كما في كتاب أبي طالب المسمى بـ «قوت القلوب» وأبو حامد مع كونه تابع في ذلك الصوفية، استند في ذلك لما وجده من كتب الفلاسفة من إثبات نحو ذلك، حيث قالوا: يعشق ويعشق.

وقد بسط الكلام على هذه المسألة العظيمة في القواعد الكبار بما ليس هذا موضعه. وقد قال تعالى: ﴿يحبهم ويحبونه﴾[3]، وقال تعالى: ﴿والذين

(١) هو الجعد بن درهم، من الموالي، مبتدع له أخبار في الزندقة، سكن الجزيرة الفراتية، قتله خالد القسري نحو سنة ١١٨هـ [الأعلام، ج ٢ ص ١٢٠].

(٢) هو جهم بن صفوان السمرقندي، أبو محرز، من موالي بني راسب رأس الجهمية. قال الذهبي: الضال المبدع، ملك في زمان صغار التابعين وقد زرع شراً عظيماً. قتل عام ١٢٨هـ [انظر الأعلام، ج ٢ ص ١٤١].

(٣) الآية ٥٤ من سورة المائدة.

آمنوا أشد حباً لله﴾[١]، وقال: ﴿أحب إليكم من الله ورسوله﴾[٢]، وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لايحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»[٣].

و (المقصود هنا) أن هؤلاء المتجهمة من المعتزلة ومن وافقهم الذين ينكرون حقيقة المحبة يلزمهم أن ينكروا التلذذ بالنظر إليه، ولهذا ليس في الحقيقة عندهم إلا التنعم بالأكل والشرب، ونحو ذلك. وهذا القول باطل بالكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة ومشائخها، فهذا أحد الحزبين الغالطين.

[أفهام بعض المتصوفة والمتفقرة والمتبتلة:]

و (الضرب الثاني): طوائف من المتصوفة والمتفقرة والمتبتلة: وافقوا هؤلاء على أن الجنة ليست إلا هذه الأمور التي يتنعم بها المخلوق؛ ولكن وافقوا السلف والأئمة على إثبات رؤية الله والتنعم بالنظر إليه، وأصابوا في ذلك وجعلوا يطلبون هذا النعيم، وتسمو إليه همتهم، ويخافون فوته، وصار أحدهم يقول: ما عبدتك شوقاً إلى جنتك، أو خوفاً من نارك، ولكن لأنظر إليك وإجلالاً لك. وأمثال هذه الكلمات. مقصودهم بذلك: هو أعلى من الأكل والشرب والتمتع بالمخلوق، لكن غلطوا في إخراج ذلك من الجنة. وقد يغلطون أيضاً في ظنهم أنهم يعبدون الله بلا حظ ولا إرادة، وأن كل ما يطلب منه فهو حظ النفس. وتوهموا أن البشر يعمل بلا إرادة ولا مطلوب ولا محبوب، وهو سوء معرفة بحقيقة الإيمان والدين والآخرة.

---

(١) الآية ١٦٥ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٢٤ من سورة التوبة.

(٣) سبق تخريج هذا الحديث ص ٧٨.

وسبب ذلك أن همة أحدهم المتعلقة بمطلوبه ومحبوبه ومعبوده تفنيه عن نفسه، حتى لا يشعر بنفسه وإرادتها، فيظن أنه يفعل لغير مراده، والذي طلب وعلق به همته غاية مراده ومطلوبه ومحبوبه، وهذا كحال كثير من الصالحين والصادقين، وأرباب الأحوال والمقامات يكون لأحدهم وجد صحيح، وذوق سليم، لكن ليس له عبارة تبين كلامه، فيقع في كلامه غلط وسوء أدب، مع صحة مقصوده؛ وإن كان من الناس من يقع منه في مراده واعتقاده.

فهؤلاء الذين قالوا مثل هذا الكلام: إذا عنوا به طلب رؤية الله تعالى أصابوا في ذلك؛ لكن أخطأوا من جهة أنهم جعلوا ذلك خارجاً عن الجنة، فأسقطوا حرمة اسم الجنة، ولزم من ذلك أمور منكرة؛ نظير ما ذكر عن الشبلي، رحمه الله، أنه سمع قارئاً يقرأ: ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾[١]. فصرخ وقال أين مريد الله؟. فيحمد منه كونه أراد الله؛ ولكن غلط في ظنه أن الذين أرادوا الآخرة ما أرادوا الله؛ وهذه الآية في أصحاب النبـي صلى الله عليه وسلم الذين كانوا معه بأحد، وهم أفضل الخلق، فإن لم يريدوا الله، أفيريد الله من هو دونهم، كالشبلي، وأمثاله؟!.

ومثل ذلك ما أعرفه عن بعض المشائخ أنه سأل مرة عن قوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون﴾[٢]. قال: فإذا كانت الأنفس والأموال في ثمن الجنة، فالرؤية بم تنال؟ فأجابه مجيب بما يشبه هذا السؤال.

والواجب أن يعلم أن كل ما أعده الله للأولياء من نعيم بالنظر إليه وما سوى ذلك هو في الجنة، كما أن كل ما وعد به أعداءه هو في النار. وقد

---

(١) الآية ١٥٢ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ١١١ من سورة التوبة.

قال تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾[1]. وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: «يقول الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر بله ما أطلعتهم عليه»[2] وإذا علم أن جميع ذلك داخل في الجنة، فالناس في الجنة على درجات متفاوتة كما قال: ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾[3] وكلِّ مطلوب للعبد بعبادة أو دعاء أو غير ذلك من مطالب الآخرة هو في الجنة.

[طلب الجنة والاستعاذة من النار طريق أنبياء الله ورسله:]

وطلب الجنة والاستعاذة من النار طريق أنبياء الله ورسله، وجميع أوليائه السابقين المقربين، وأصحاب اليمين. كما في السنن أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل بعض أصحابه: «كيف تقول: في دعائك؟ قال: أقول: اللهم إني أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار؛ أما إني لا أُحسن دندنتك، ولا دندنة معاذ. فقال: حولها ندندن»[4]، فقد أخبر أنه هو صلى

---

(١) الآية ١٧ من سورة السجدة.

(٢) الحديث رواه: البخاري في كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ ج ١٣ ص ٤٦٥؛ ومسلم في كتاب الجنة، باب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، ج ٤ ص ٢١٧٤؛ والترمذي في التفسير، باب تفسير سورة الواقعة، ج ٥ ص ٧٤؛ وابن ماجه في كتاب الزهد، باب صفة الجنة، ج ٢ ص ١٤٤٧؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٣١٣.

(٣) الآية ٢١ من سورة الإسراء.

(٤) الحديث رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب في تخفيف الصلاة، ج ١ ص ٥٠١؛ وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، باب ما يقال في التشهد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ج ١ ص ٢٩٥ قال: في الزوائد إسناده صحيح ورجاله ثقات؛ وأحمد في مسنده، ج ٣ ص ٤٧٤.

الله عليه وسلم ومعاذ ـ وهو أفضل الأئمة الراتبين بالمدينة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ـ إنما يدندنان حول الجنة، أفيكون قول أحد فوق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاذ، ومن يصلي خلفهما من المهاجرين والأنصار؟! ولو طلب هذا العبد ما طلب كان في الجنة.

[أهل الجنة نوعان:]

وأهل الجنة نوعان: سابقون مقربون، وأبرار أصحاب يمين. قال تعالى: ﴿كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين، وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون. إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم. عيناً يشرب بها المقربون﴾[1]. قال ابن عباس: تمزج لأصحاب اليمين مزجاً ويشربها المقربون صرفاً.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي مرة صلى الله عليه عشراً ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد، فمن سأل الله لي الوسيلة، حلت عليه شفاعتي يوم القيامة»[2]، فقد أخبر أن الوسيلة ـ التي لا تصلح إلا لعبد واحد من عباد الله، ورجا أن يكون هو ذلك العبد ـ هي درجة في الجنة، فهل بقي بعد الوسيلة شيء أعلى منها يكون خارجاً عن الجنة، يصلح للمخلوقين؟!.

---

(١) الآيات ١٨ ـ ٢٨ من سورة المطففين.

(٢) رواه مسلم في كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن، ج ١ ص ٢٨٨/٢٨٩؛ وأبو داود في كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا سمع المؤذن، ج ١ ص ٣٥٩/٣٦٠؛ والترمذي في أبواب المناقب، ج ٥ ص ٢٤٦؛ والنسائي في الأذان، باب الصلاة عل النبي صلى الله عليه وسلم بعد الأذان، ج ٢ ص ٢٥/٢٦؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ١٦٨.

وثبت في الصحيح أيضاً في حديث الملائكة الذين يلتمسون الناس في مجالس الذكر قال: «فيقولون للرب تبارك وتعالى: وجدناهم يسبحونك ويحمدونك ويكبرونك. قال: فيقول: وما يطلبون؟ قالوا: يطلبون الجنة. قال: فيقول: وهل رأوها؟ قال: فيقولون: لا، قال: فيقول: فكيف لو رأوها؟! قال: فيقولون: لو رأوها لكانوا أشد لها طلباً. قال: وممَّ يستعيذون؟! قالوا: يستعيذون من النار. قال: فيقول: وهل رأوها؟! قال: فيقولون: لا. قال: فيقول: فكيف لو رأوها؟ قالوا: لو رأوها لكانوا أشد منها استعاذة. قال: فيقول: أشهدكم إني أعطيتهم ما يطلبون، وأعذتهم مما يستعيذون ـ أو كما قال ـ قال: فيقولون: فيهم فلان الخطاء جاء لحاجة فجلس معهم، قال: فيقول: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»[1] ـ فهؤلاء الذين هم من أفضل أولياء الله كان مطلوبهم الجنة، ومهربهم من النار.

والنبي صلى الله عليه وسلم لما بايع الأنصار ليلة العقبة، وكان الذين بايعوه من أفضل السابقين الأولين الذين هم أفضل من هؤلاء المشائخ كلهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: اشترط لربك ولنفسك ولأصحابك، قال: «أشترط لنفسي أن تنصروني مما تنصرون منه أنفسكم وأهليكم وأشترط لأصحابي أن تواسوهم. قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: لكم الجنة. قالوا: مد يدك فوالله لا نقيلك، ولا نستقيلك»[2]. وقد قالوا له في أثناء البيعة: «إن بيننا وبين القوم حبالاً وعهوداً وإنا ناقضوها»[3].

---

(١) الحديث رواه: الترمذي في كتاب الدعوات، ج ٥ ص ٢٣٧، وقال هذا حديث حسن صحيح؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٢٥١/٢٥٢.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج ٣ ص ٣٣٩/٣٤٠
قال الساعاتي في الفتح الرباني، ج ٢٠ ص ٢٧٦: ورجاله ثقات.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده انظر الفتح الرباني ج ٢٠ ص ٢٧٤ وذكره ابن هشام في السيرة مع اختلاف يسير. انظر السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢ ص ٨٥.

فهؤلاء الذين [بايعوه] من أعظم خلق الله محبة لله ورسوله، وبذلاً لنفوسهم وأموالهم في رضا الله ورسوله، على وجه لا يلحقهم فيه أحد من هؤلاء المتأخرين، قد كان غاية ما طلبوه بذلك الجنة، فلو كان هناك مطلوب أعلى من ذلك لطلبوه، ولكن علموا أن في الجنة كل محبوب ومطلوب؛ بل وفي الجنة ما لا تشعر به النفوس لتطلبه، فإن الطلب والحب والإرادة فرع عن الشعور والإحساس والتصور، فما لا يتصوره الإنسان ولا يحسه ولا يشعر به يمتنع أن يطلبه ويحبه ويريده فالجنة فيها هذا وهذا. كما قال تعالى: ﴿لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد﴾[1]، وقال: ﴿وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين﴾[2]، ففيها ما يشتهون، وفيها مزيد على ذلك، وهو ما لم يبلغه علمهم ليشتهوه. كما قال صلى الله عليه وسلم: «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[3] وهذا باب واسع.

[غلط من قال الرضا أن لا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار:]

فإذا عرفت هذه «المقدمة» فقول القائل: الرضا أن لا تسأل الله الجنة، ولا تستعيذه من النار، إن أراد بذلك أن لا تسأل الله ما هو داخل في مسمى الجنة الشرعية، فلا تسأله النظر إليه، ولا غير ذلك مما هو مطلوب جميع الأنبياء والأولياء، وأنك لا تستعيذ به من احتجابه عنك، ولا من تعذيبك في النار. فهذا الكلام مع كونه مخالفاً لجميع الأنبياء والمرسلين، وسائر المؤمنين، فهو متناقض في نفسه، فاسد في صريح العقول. وذلك أن الرضا الذي لا يسأل، إنما لا يسأله لرضاه عن الله.

---

(١) الآية ٣٥ من سورة ق.

(٢) الآية ٧١ من سورة الزخرف.

(٣) سبق تخريج هذا الحديث ص ١٣٣.

ورضاه عنه إنما هو بعد معرفته به، ومحبته له. وإذا لم يبق معه رضا عن الله ولا محبة لله فكأنه قال: يرضى أن لا يرضى وهذا جمع بين النقيضين. ولا ريب أنه كلام من لم يتصور ما يقول، ولا عقله. يوضح ذلك أن الراضي إنما يحمله على احتمال المكاره والآلام ما يجده من لذة الرضا وحلاوته. فإذا فقد تلك الحلاوة واللذة امتنع أن يتحمل ألماً ومرارة، فكيف يتصور أن يكون راضياً، وليس معه من حلاوة الرضا ما يحمل به مرارة المكاره؟ وإنما هذا من جنس كلام السكران والفاني الذي وجد في نفسه حلاوة الرضا، فظن أن هذا يبقى معه على أي حال كان، وهذا غلط عظيم منه: كغلط سمنون كما تقدم.

وإن أراد بذلك أن لا يسأل التمتع بالمخلوق، بل يسأل ما هو أعلى من ذلك؛ فقد غلط من وجهين:

من جهة أنه لم يجعل ذلك المطلوب من الجنة وهو أعلى نعيم الجنة.

ومن جهة أنه أيضاً أثبت أنه طالب مع كونه راضياً، فإذا كان الرضا لا ينافي هذا الطلب، فلا ينافي طلباً آخر إذا كان محتاجاً إلى مطلوبه؛ ومعلوم أن تمتعه بالنظر لا يتم إلا بسلامته من النار، وبتنعمه من الجنة بما هو دون النظر. وما لا يتم المطلوب إلا به فهو مطلوب؛ فيكون طلبه للنظر طلباً للوازمه التي منها النجاة من النار، فيكون رضاه لا ينافي طلب حصول المنفعة ودفع المضرة عنه، ولا طلب حصول الجنة ودفع النار ولا غيرهما مما هو من لوازم النظر، فتبين تناقض قوله.

و (أيضاً) فإذا لم يسأل الله الجنة، ولم يستعذ به من النار، فإما أن يطلب من الله ما هو دون ذلك مما يحتاج إليه من طلب منفعة ودفع مضرة. وإما أن لا يطلبه، فإن طلب ما هو دون ذلك واستعاذ مما هو دون ذلك فطلبه للجنة أولى، واستعاذته من النار أولى. وإن كان الرضا أن لا يطلب شيئاً قط، ولو كان مضطراً إليه، ولا يستعيذ من شيء قط وإن كان مضراً،

فلا يخلو: إما أن يكون ملتفتاً بقلبه إلى الله في أن يفعل به ذلك، وإما أن يكون معرضاً عن ذلك، فإن التفت بقلبه إلى الله فهو طالب مستعيذ بحاله، ولا فرق بين الطلب بالحال والقال. وهو بهما أكمل وأتم فلا يعدل عنه.

وإن كان معرضاً عن جميع ذلك، فمن المعلوم أنه لا يحيى ويبقى إلا بما يقيم حياته، ويدفع مضاره بذلك. والذي به يحيى من المنافع ودفع المضار، إما أن يحبه ويطلبه ويريده من أحد، أو لا يحبه ولا يطلبه ولا يريده. فإن أحبه وطلبه وأراده من غير الله كان مشركاً مذموماً، فضلاً عن أن يكون محموداً. وإن قال لا أحبه وأطلبه وأريده لا من الله ولا من خلقه. قيل: هذا ممتنع في الحي، فإن الحي ممتنع عليه أن لا يحب ما به يبقى، وهذا أمر معلوم بالحس، ومن كان بهذه المثابة امتنع أن يوصف بالرضا، فإن الراضي موصوف بحب وإرادة خاصة، إذ الرضا مستلزم لذلك. فكيف يسلب عنه ذلك كله فهذا وأمثاله مما يبين فساد هذا الكلام.

وأما في سبيل الله وطريقه ودينه فمن وجوه:

(أحدها): أن يقال الراضي لا بد أن يفعل ما يرضاه الله، وإلا فكيف يكون راضياً عن الله من لا يفعل ما يرضاه الله؟ وكيف يسوغ رضا ما يكرهه الله ويسخطه ويذمه، وينهى عنه.

وبيان هذا: أن الرضا المحمود: إما أن يكون الله يحبه ويرضاه وإما أن لا يحبه ويرضاه، فإن لم يكن يحبه ويرضاه لم يكن هذا الرضا مأموراً به، لا أمر إيجاب ولا أمر استحباب؛ فإن من الرضا ما هو كفر، كرضا الكفار بالشرك، وقتل الأنبياء وتكذيبهم، ورضاهم بما يسخطه الله ويكرهه. قال تعالى: ﴿ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط

أعمالهم﴾(1)، فمن اتبع ما أسخط الله برضاه وعمله فقد أسخط الله. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الخطيئة إذا عملت في الأرض كان من غاب عنها ورضيها كمن حضرها، ومن شهدها وسخطها كان كمن غاب عنها وأنكرها»(2). وقال صلى الله عليه وسلم: «سيكون بعدي أمراء تعرفون وتنكرون، فمن أنكر فقد برىء، ومن كره فقد سلم ولكن من رضي وتابع هلك»(3). وقال تعالى: ﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾(4)، فرضانا عن القوم الفاسقين ليس مما يحبه الله ويرضاه، وهو لا يرضى عنهم. وقال تعالى: ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾(5)، فهذا رضا قد ذمه الله. وقال تعالى: ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها﴾(6)، فهذا أيضاً رضا مذموم، وسوى هذا وهذا كثير.

فمن رضي بكفره وكفر غيره وفسقه وفسق غيره ومعاصيه ومعاصي غيره فليس هو متبعاً لرضا الله ولا هو مؤمن بالله. بل هو مسخط لربه، وربه غضبان عليه، لاعن له، ذام له، متوعد له بالعقاب.

وطريق الله التي يأمر بها المشائخ المهتدون: إنما هي الأمر بطاعة الله

---

(1) الآية ٢٨ من سورة محمد.

(2) رواه أبو داود في كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ج ٤ ص ٥١٥

(3) الحديث رواه: مسلم في كتاب الإمارة، باب إذا بويع لخليفتين، ج ٣ ص ١٤٨٠/١٤٨١ مع اختلاف يسير في اللفظ؛ وأبو داود في كتاب السنة، باب في قتل الخوارج، ج ٥ ص ١١٩/١٢٠؛ والترمذي في كتاب الوصايا، ج ٣ ص ٣٦١؛ وأحمد في مسنده، ج ٦ ص ٣٠٢.

(4) الآية ٩٦ من سورة التوبة.

(5) الآية ٣٨ من سورة التوبة.

(6) الآية ٧ من سورة يونس.

والنهي عن معصيته. فمن أمر أو استحب أو مدح الرضا الذي يكرهه الله ويذمه وينهي عنه ويعاقب أصحابه فهو عدو لله لأولى لله وهو يصد عن سبيل الله وطريقه، ليس بسالك لطريقه وسبيله. وإذا كان الرضا الموجود في بني آدم منه ما يحبه الله، ومنه ما يكرهه ويسخطه ومنه ما هو مباح لا من هذا ولا من هذا، كسائر أعمال القلوب من الحب والبغض وغير ذلك: لكها تنقسم إلى محبوب لله ومكروه لله مباح.

فإذا كان الأمر كذلك فالراضي الذي لا يسأل الله الجنة ولا يستعيذه من النار يقال له: سؤال الله الجنة واستعاذته من النار إما أن تكون واجبة، وإما أن تكون مستحبة، وإما أن تكون مباحة، وإما أن تكون مكروهة، ولا يقول مسلم: إنها محرمة ولا مكروهة، وليست أيضاً مباحة مستوية الطرفين. ولو قيل: إنها كذلك ففعل المباح المستوي الطرفين لا ينافي الرضا؛ إذ ليس من شرط الراضي أن لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يفعل أمثال هذه الأمور. فإذا كان ما يفعله من هذه الأمور لا ينافي رضاه. أينافي رضاه دعاء وسؤال هو مباح؟!. وإذا كان السؤال والدعاء كذلك واجباً أو مستحباً فمعلوم أن الله يرضى بفعل الواجبات والمستحبات، فكيف يكون الراضي الذي من أولياء الله لا يفعل ما يرضاه ويحبه؛ بل يفعل ما يسخطه ويكرهه وهذه صفة أعداء الله لا أولياء الله.

[احتجاج القدرية بأن الرضا بقضاء الله مأمور به ورد أهل السنة على ذلك:]

والقشيري قد ذكره في أوائل (باب الرضا)، فقال: اعلم أن الواجب على العبد أن يرضى بقضاء الله الذي أمر بالرضا به، إذ ليس كل ما هو بقضائه يجوز للعبد أو يجب على العبد الرضا به. كالمعاصي وفنون محن المسلمين[1]. وهذا الذي قاله، قاله قبله وبعده ومعه غير واحد من

(١) انظر الرسالة القشيرية، باب الرضا، ص ٨٩ طبعة دار الكتاب العربي.

العلماء: كالقاضي أبي بكر[1]، والقاضي أبي يعلى[2] وأمثالهما، لما احتج عليهم القدرية بأن الرضا بقضاء الله مأمور به، فلو كانت المعاصي بقضاء الله لكنا مأمورين بالرضا بها، والرضا بما نهى الله عنه لا يجوز فأجابهم أهل السنة عن ذلك بثلاثة أجوبة:

(أحدها) ــ وهو جواب هؤلاء وجماهير الأئمة: أن هذا العموم ليس بصحيح، فلسنا مأمورين أن نرضى بكل ما قضى وقدر، ولم يجىء في الكتاب والسنة أمر بذلك، ولكن علينا أن نرضى بما أمرنا أن نرضى به، كطاعة الله ورسوله. وهذا هو الذي ذكره أبو القاسم.

(والجواب الثاني): أنهم قالوا: إنا نرضى بالقضاء الذي هو صفة الله أو فعله لا بالمقضي الذي هو مفعوله. وفي هذا الجواب ضعف قد بيناه في غير هذا الموضع.

(الثالث): أنهم قالوا: هذه المعاصي لها وجهان: وجه إلى العبد من حيث هي فعله وصنعه وكسبه، ووجه إلى الرب من حيث هو خلقها وقضاها وقدرها، فيرضى من الوجه الذي يضاف به إلى الله، ولا يرضى من الوجه الذي يضاف به إلى العبد، إذ كونها شراً وقبيحة ومحرماً وسبباً للعذاب والذم ونحو ذلك إنما هو من جهة كونها مضافة إلى العبد. وهذا مقام فيه من كشف الحقائق والأسرار ما قد ذكرنا منه ما قد ذكرناه في غير هذا الموضع؛ ولا يحتمله هذا المكان. فإن هذا متعلق بمسائل «الصفات

---

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو بكر: قاض، من كبار علماء الكلام. انتهت إليه الرياسة فيمذهب الأشاعرة. ولد في البصرة سنة ٣٣٨هـ وسكن بغداد وتوفي فيها بسنة ٤٠٣هـ [الأعلام، ج ٦ ص ١٧٦].

(٢) هو محمد بن الحسين بن محمد بن خلف الفراء، أبو يعلى عالم عصره في الأصول والفروع وأنواع الفنون من أهل بغداد ارتفعت مكانته عند القادر والقائم العباسيين، وولاه القائم قضاء دار الخلافة والحريم وحران وحلوان. ولد سنة ٣٨٠هـ وتوفي سنة ٤٥٨هـ [الأعلام، ج ٦ ص ٩٩/١٠٠].

والقدر» وهي من أعظم مطالب الدين وأشرف علوم الأولين والآخرين وأدقها على عقول أكثر العالمين.

والمقصود هنا أن مشائخ الصوفية والعلماء وغيرهم قد بينوا أن من الرضا ما يكون جائزاً، ومنه ما لا يكون جائزاً فضلاً عن كونه مستحباً أو من صفات المقربين، وأن أبا القاسم ذكر ذلك في «الرسالة» أيضاً.

(فإن قيل): هذا الذي ذكرتموه أمر بيِّنٌ واضح، فمن أين غلط من قال: الرضا أن لا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار؟ وغلط من يستحسن مثل هذا الكلام كائناً من كان؟.

(قيل): غلطوا في ذلك لأنهم رأوا أن الراضي بأمر لا يطلب غير ذلك الأمر، فالعبد إذا كان في حال من الأحوال فمن رضاه أن لا يطلب غير تلك الحال، ثم إنهم رأوا أن أقصى المطالب الجنة، وأقصى المكاره النار. فقالوا: ينبغي أن لا يطلب شيئاً ولو أنه الجنة ولا يكره ما يناله، ولو أنه النار، وهذا وجه غلطهم. ودخل عليهم الضلال من وجهين:

(أحدهما): ظنهم أن الرضا بكل ما يكون أمر يحبه الله ويرضاه وأن هذا من أعظم طرق أولياء الله، فجعلوا الرضا بكل حادث وكائن أو بكل حال يكون فيها للعبد طريقاً إلى الله، فضلوا ضلالاً مبيناً والطريق إلى الله إنما هي أن ترضيه بأن تفعل ما يحبه ويرضاه ليس أن ترضى بكل ما يحدث ويكون، فإنه هو لم يأمرك بذلك، ولا رضيه لك ولا أحبه؛ بل [هو] سبحانه يكره ويسخط ويبغض على أعيان أفعال موجودة لا يحصيها إلا هو. وولاية الله موافقته بأن تحب ما يحب وتبغض ما يبغض، وتكره ما يكره، وتسخط ما يسخط، وتوالي من يوالي، وتعادي من يعادي. فإذا كنت تحب وترضى ما يكرهه ويسخطه كنت عدوه لا وليه، وكان كل ذم نال من رضي ما أسخط الله قد نالك.

فتدبر هذا؛ فإنه ينبه على أصل عظيم ضل فيه من طوائف النساك والصوفية والعباد والعامة من لا يحصيهم إلا الله.

(الوجه الثاني): أنهم لا يفرقون بين الدعاء الذي أمروا به أمر إيجاب، وأمر استحباب، وبين الدعاء الذي نهوا عنه، أو لم يؤمروا به ولم ينهوا عنه، فإن دعاء العبد لربه ومسألته إياه ثلاثة أنواع.

[أنواع دعاء العبد لربه:]

«نوع» أمر العبد به إما أمر إيجاب وإما أمر استحباب: مثل قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾[1] ومثل دعائه في آخر الصلاة كالدعاء الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر به أصحابه، فقال: «إذا قعد أحدكم في الصلاة فليستعذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، وعذاب القبر، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال»[2]. فهذا دعاء أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعوا به في آخر صلاتهم. وقد اتفقت الأمة على أنه مشروع يحبه الله ورسوله ويرضاه، وتنازعوا في وجوبه. فأوجبه طاووس وطائفة: هذا مستحب، والأدعية التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بها: لا تخرج عن أن تكون واجبة، أو مستحبة، وكل واحد من الواجب والمستحب يحبه الله ويرضاه. ومن فعله رضي الله عنه وأرضاه، فهل يكون من الرضا ترك ما يحبه ويرضاه؟!.

و «نوع من الدعاء» ينهى عنه: كالاعتداء مثل أن يسأل الرجل ما لا يصلح من خصائص الأنبياء، وليس هو بنبي، وربما هو من خصائص الرب سبحانه وتعالى. مثل أن يسأل لنفسه الوسيلة التي

---

(١) الآية ٦ من سورة الفاتحة.

(٢) الحديث رواه مسلم في كتاب المساجد، باب ما يستعاذ منه في الصلاة، ج ١ ص ٤١٢؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٤٧٧.

لا تصلح إلا لعبد من عباده، أو يسأل الله تعالى أن يجعله بكل شيء عليماً، أو على كل شيء قدير، وأن يرفع عنه كل حجاب يمنعه من مطالعة الغيوب. وأمثال ذلك، أو مثل من يدعوه ظاناً أنه محتاج إلى عباده؛ وأنهم يبلغون ضره ونفعه فيطلب منه ذلك الفعل. ويذكر أنه إذا لم يفعله حصل له من الخلق ضير. وهذا ونحوه جهل بالله واعتداء في الدعاء. وإن وقع في ذلك طائفة من الشيوخ. ومثل أن يقولوا: اللهم اغفر لي إن شئت، فيظن أن الله قد يفعل الشيء مكرهاً، وقد يفعل مختاراً. كالملوك فيقول: اغفر لي إن شئت، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال: «لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ولكن ليعزم المسألة فإن الله لا مكره له»[1] ومثل أن يقصد السجع في الدعاء ويتشهق ويتشدق[2]، وأمثال ذلك فهذه الأدعية ونحوها منهي عنها.

ومن الدعاء ما هو مباح كطلب الفضول التي لا معصية فيها.

[آراء في الرضا:]

و (المقصود) أن الرضا الذي هو من طريق الله لا يتضمن ترك واجب ولا ترك مستحب، فالدعاء الذي هو واجب أو مستحب لا يكون تركه من الرضا؛ كما أن ترك سائر الواجبات لا يكون من الرضا المشروع، ولا فعل المحرمات من المشروع. فقد تبين غلط هؤلاء من جهة ظنهم أن الرضا

---

(١) الحديث رواه: البخاري في كتاب التوحيد، باب في المشيئة والإرادة، ج ١٣ ص ٤٤٨؛ ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت، ج ٤ ص ٢٠٦٣؛ والترمذي في أبواب الدعوات، ج ٥ ص ١٨٧؛ وأبو داود في الوتر، باب الدعاء، ج ٢ ص ١٦٣؛ وابن ماجه في كتاب الأدب، باب لا يقول الرجل: اللهم اغفر لي إن شئت، ج ٢ ص ١٢٦٧؛ ومالك في الموطأ في كتاب القرآن، باب ما جاء في الدعاء، ج ١ ص ٢١٣.

(٢) تشدق في كلامه: فتح فمه واتسع [لسان العرب، ج ١٠ ص ١٧٣].

مشروع بكل مقدور، ومن جهة أنهم لم يميزوا بين الدعاء المشروع إيجاباً، واستحباباً، والدعاء غير المشروع.

وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن طلب الجنة من الله، والاستعاذة به من النار، هو من أعظم الأدعية المشروعة لجميع المرسلين والنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأن ذلك لا يخرج عن كونه واجباً أو مستحباً، وطريق أولياء الله التي يسلكونها لا تخرج عن فعل واجبات ومستحبات، إذ ما سوى ذلك محرم أو مكروه أو مباح لا منفعة فيه في الدين.

ثم إنه لما أوقع هؤلاء في هذا الغلط أنهم وجدوا كثيراً من الناس لا يسألون الله جلب المنافع، ودفع المضار، حتى طلب الجنة، والاستعاذة من النار من جهة كون ذلك عبادة وطاعة وخيراً؛ بل من جهة كون النفس تطلب ذلك، فرأوا أن من الطريق ترك ما تختاره النفس وتريده، وأن لا يكون لأحدهم إرادة أصلاً؛ بل يكون مطلوبه الجريان تحت القدر ــ كائناً من كان ــ وهذا هو الذي أدخل كثيراً منهم في الرهبانية، والخروج عن الشريعة، حتى تركوا من الأكل والشرب واللباس والنكاح ما يحتاجون إليه، وما لا تتم مصلحة دينهم إلا به؛ فإنهم رأوا العامة تعد هذه الأمور بحكم الطبع والهوى والعادة، ومعلوم أن الأفعال التي على هذا الوجه لا تكون عبادة ولا طاعة ولا قربة فرأى أولئك الطريق إلى الله ترك هذه العبادات، والأفعال الطبعيات، فلازموا من الجوع والسهر والخلوة والصمت وغير ذلك مما فيه ترك الحظوظ واحتمال المشاق، ما أوقعهم في ترك واجبات ومستحبات، وفعل مكروهات ومحرمات.

وكلا الأمرين غير محمود، ولا مأمور به، ولا طريق إلى الله: طريق المفرطين الذين فعلوا هذه الأفعال المحتاج إليها على غير وجه العبادة، والتقرب إلى الله، وطريق المعتدين الذين تركوا هذه الأفعال؛ بل المشروع أن تفعل بنية التقرب إلى الله، وأن يشكر الله. قال الله تعالى: ﴿كلوا من

الطيبات واعملوا صالحاً﴾[١]، وقال تعالى: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله﴾[٢]، فأمر بالأكل والشرب، فمن أكل ولم يشكر كان مذموماً، ومن لم يأكل ولم يشكر كان مذموماً، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»[٣]. وقال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد: «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى اللقمة تضعها في في امرأتك»[٤]. وفي الصحيح أيضاً أنه قال: «نفقة المؤمن على أهله يحتسبها صدقة»[٥]. فكذلك الأدعية هنا من الناس من يسأل الله جلب المنفعة له ودفع المضرة عنه طبعاً وعادة لا شرعاً وعبادة، فليس من المشروع أن ادع الدعاء مطلقاً لتقصير هذا وتفريطه؛ بل أفعله أنا شرعاً وعبادة.

ثم اعلم أن الذي يفعله شرعاً وعبادة إنما يسعى في مصلحة نفسه وطلب حظوظه المحمودة فهو يطلب مصلحة دنياه وآخرته؛ بخلاف الذي يفعله طبعاً فإنه إنما يطلب مصلحة دنياه فقط، كما قال تعالى: ﴿فمن الناس من

---

(١) الآية ٥١ من سورة (المؤمنون).

(٢) الآية ١٧٢ من سورة البقرة.

(٣) الحديث رواه مسلم في كتاب الذكر، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، ج ٤ ص ٢٠٩٥؛ والترمذي في الأطعمة، باب الحمد على الطعام إذا فرغ منه، ج ٣ ص ١٧٢؛ وأحمد في مسنده، ج ٣ ص ١٠٠.

(٤) الحديث رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرىء ما نوى، ج ١ ص ١٣٦؛ ومسلم في كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، ج ٣ ص ١٢٥١؛ وأبو داود في الوصايا، باب ما جاء في ما لا يجوز للموصي في ماله، ج ٣ ص ٢٨٦؛ والترمذي في الوصايا، باب ما جاء في الوصية بالثلث، ج ٣ ص ٢٩١؛ والدارمي في الوصية، باب الوصية بالثلث، ج ٢ ص ٤٠٧؛ وأحمد في مسنده، ج ١ ص ١٧٩.

(٥) رواه البخاري في المغازي، ج ٧ ص ٣١٧؛ والترمذي في أبواب البر، باب ما جاء في النفقة على الأهل، ج ٣ ص ٢٣٢؛ وأحمد في مسنده، ج ٥ ص ٢٧٣.

يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق، ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، أولئك لهم نصيب مما كسبوا، والله سريع الحساب﴾[1]، وحينئذ فطالب الجنة والمستعيذ من النار إنما يطلب حسنة الآخرة فهو محمود.

ومما يبين الأمر في ذلك أن يرد قول هؤلاء بأن العبد لا يفعل مأموراً ولا يترك محظوراً، فلا يصلي ولا يصوم ولا يتصدق، ولا يحج ولا يجاهد ولا يفعل شيئاً من القربات، فإن ذلك إنما فائدته حصول الثواب ودفع العقاب. فإذا كان هو لا يطلب حصول الثواب الذي هو الجنة، ولا دفع العقاب الذي هو النار، فلا يفعل مأموراً، ولا يترك محظوراً، ويقول أنا راض بكل ما يفعله بي وإن كفرت وفسقت وعصيت؛ بل يقول: أنا أكفر وأفسق، وأعصي حتى يعاقبني وأرضى بعقابه فأنال درجة الرضا بقضائه، وهذا قول من [هو من] أجهل الخلق وأحمقهم وأضلهم وأكفرهم.

أما جهله وحمقه، فلأن الرضا بذلك ممتنع متعذر، لأن ذلك يستلزم الجمع بين النقيضين.

وأما كفره فلأنه مستلزم لتعطيل دين الله الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه.

ولا ريب أن ملاحظة القضاء والقدر أوقعت كثيراً من أهل الإرادة من المتصوفة في أن تركوا من المأمور وفعلوا من المحظور ما صاروا به إما ناقصين محرومين وإما عاصين فاسقين وإما كافرين، وقد رأيت من ذلك ألواناً ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾[2].

وهؤلاء المعتزلة ونحوهم من القدرية طرفا نقيض ـ هؤلاء يلاحظون القدر ويعرضون عن الأمر. وأولئك يلاحظون الأمر ويعرضون عن

---

(١) الآيات ٢٠٠ ـ ٢٠٢ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٤٠ من سورة النور.

القدر ـ والطائفتان تظن أن ملاحظة الأمر والقدر متعذر، كما أن طائفة تجعل ذلك مخالفاً للحكمة والعدل. وهذه الأصناف الثلاثة هي: القدرية المجوسية، والقدرية المشركية؛ والقدرية الإبليسية؛ وقد بسطنا الكلام عليهم في غير هذا الموضع.

وأصل ما يبتلى به السالكون أهل الإرادة والعامة في هذا الزمان هي «القدرية المشركية» فيشهدون القدر ويعرضون عن الأمر، كما قال فيهم بعض العلماء: أنت عند الطاعة قدري، وعند المعصية جبري، أي مذهب وافق هواك تمذهبت به. وإنما المشروع العكس وهو أن يكون عند الطاعة يستعين الله عليها قبل الفعل، ويشكره عليها بعد الفعل. ويجتهد أن لا يعصي فإذا أذنب وعصى بادر إلى التوبة والاستغفار، كما في حديث سيد الاستغفار: «أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي»[1]، وكما في الحديث الصحيح الإلهي «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[2].

ومن هذا الباب دخل قوم من أهل الإرادة في ترك الدعاء وآخرون جعلوا التوكل والمحبة من مقامات العامة، وأمثال هذه الأغاليط التي تكلمنا عليها في غير هذا الموضع وبينا الفرق بين الصواب والخطأ في ذلك؛ ولهذا يوجد في كلام هؤلاء المشايخ الوصية باتباع العلم والشريعة، حتى قال سهل بن عبدالله التستري[3]: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل. وقال الجنيد بن محمد: علمنا مقيد بالكتاب والسنة؛ فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصح أن يتكلم في علمنا. والله أعلم.

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث، ص ١٠٤. (٢) سبق تخريج هذا الحديث، ص ١٠٥.

(٣) هو أبو محمد سهل بن عبدالله بن يونس بن عيسى بن عبدالله بن رفيع التستري الصالح المشهور، وكان صاحب كرامات. ولد بتستر سنة مائتين أو إحدى ومائتين، وكانت وفاته سنة ثلاث وثمانين في المحرم، وقيل سنة ثلاث وسبعين ومائتين بالبصرة [وفيات الأعيان، ج ٢ ص ٤٣٠].

الفَصْل الثامن

[الهم والعزم:]

[سؤال:]

ما تقول السادة العلماء في من عزم على «فعل محرم» كالزنا والسرقة، وشرب الخمر عزماً جازماً ــ فعجز عن فعله: إما بموت، أو غيره. هل يأثم بمجرد العزم أم لا؟ وإن قلتم: يأثم، فما جواب من يحتج على عدم الإثم بقوله: «إذا هم عبدي بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه»[1]، وبقوله: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم»[2] واحتج به من وجهين.

(أحدهما): أنه أخبر بالعفو عن حديث النفس، والعزم داخل في العموم والعزم والهم واحد. قاله ابن سيده.

---

(١) الحديث رواه: مسلم في كتاب الإيمان، باب إذا همّ العبد بحسنة كتبت وإذا همّ بسيئة لم تكتب، ج ١ ص ١١٧؛ والترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب سورة الأنعام، ج ٤ ص ٣٣٠، وأحمد في مسنده، ج ١ ص ٢٢٧.

(٢) الحديث رواه: البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسياً في الأيمان، ج ١١ ص ٥٤٩؛ ومسلم في كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر، ج ١ ص ١١٦/١١٧؛ والترمذي في أبواب الطلاق، باب ما جاء فيمن يحدث نفسه بطلاق امرأته، ج ٢ ص ٣٢٨؛ وأبو داود في كتاب الطلاق، باب في الوسوسة بالطلاق، ج ٢ ص ٦٥٧/٦٥٨؛ والنسائي في الطلاق، باب من طلق في نفسه، ج ٦ ص ١٥٦؛ وابن ماجه في كتاب الطلاق، باب من طلق في نفسه ولم يتكلم به، ج ١ ص ٦٥٨؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٤٢٥.

(الثاني): أنه جعل التجاوز ممتداً إلى أن يوجد كلام أو عمل، وما قبل ذلك داخل في حد التجاوز، ويزعم أن لا دلالة في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»[1]؛ لأن الموجب لدخول المقتول في النار مواجهته أخيه، لأنه عمل لا مجرد قصد، وأن لا دلالة في قوله صلى الله عليه وسلم، في الذي قال: «لو أن لي مالاً لفعلت وفعلت، إنهما في الإثم سواء وفي الأجر سواء»[2] لأنه تكلم، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما لم تعمل به أو تتكلم»[3] وهذا قد تكلم، وقد وقع في هذه المسألة كلام كثير، واحتيج إلى بيانها مطولاً مكشوفاً مستوفى.

[الإجابة:]

فأجاب شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ونور ضريحه:

الحمد لله، هذه المسألة ونحوها تحتاج قبل الكلام في حكمها إلى حسن التصور لها، فإن اضطراب الناس في هذه المسائل وقع عامته من أمرين.

[سببا الاضطراب:]

(أحدهما): عدم تحقيق أحوال القلوب وصفاتها، التي هي مورد الكلام.

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾ ج ١ ص ٨٥؛ ومسلم في كتاب الفتن، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، ج ٤ ص ٢٢١٤؛ وأبو داود في كتاب الفتن، باب في النهي عن القتال في الفتنة، ج ٤ ص ٤٦٢؛ والنسائي في كتاب التحريم، باب تحريم القتل، ج ٧ ص ١٢٥؛ وابن ماجه في الفتن، باب إذا التقى المسلمان بسيفيهما، ج ٢ ص ١٣١١؛ وأحمد في مسنده، ج ٤ ص ٤٠١.

(٢) الحديث رواه الترمذي مطولاً في أبواب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، ج ٣ ص ٣٨٥ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) سبق تخريج هذا الحديث، ص ١٤٩.

و (الثاني): عدم إعطاء الأدلة الشرعية حقها: ولهذا كثر اضطراب كثير من الناس في هذا الباب، حتى يجد الناظر في كلامهم أنهم يدعون إجماعات متناقضة في الظاهر.

[تفاوت الأفعال والصفات:]

فينبغي أن يعلم أن كل واحد من صفات الحي التي هي العلم والقدرة والإرادة ونحوها له من المراتب ما بين أوله وآخره ما لا يضبطه العباد: كالشك، ثم الظن، ثم العلم، ثم اليقين، ومراتبه؛ وكذلك الهم والإرادة والعزم وغير ذلك؛ ولهذا كان الصواب عند جماهير أهل السنة ــ وهو ظاهر مذهب أحمد، وهو أصح الروايتين عنه، وقول أكثر أصحابه ــ إن العلم والعقل ونحوهما يقبل الزيادة والنقصان، بل وكذلك الصفات التي تقوم بغير الحي: كالألوان والطعوم والأرواح.

[الإرادة الجازمة وحكمها:]

فنقول أولاً: الإرادة الجازمة هي التي يجب وقوع الفعل معها، إذا كانت القدرة حاصلة فإنه متى وجدت الإرادة الجازمة مع القدرة التامة وجب وجود الفعل لكمال وجود المقتضى السالم عن المعارض المقاوم، ومتى وجدت الإرادة والقدرة التامة ولم يقع الفعل لم تكن الإرادة جازمة، وهو إرادات الخلق لما يقدرون عليه من الأفعال، ولم يفعلوه، وإن كانت هذه الإرادات متفاوتة في القوة والضعف تفاوتاً كثيراً، لكن حيث لم يقع الفعل المراد مع وجود القدرة التامة فليست الإرادة جازمة جزماً تاماً.

وهذه «المسألة» إنما كثر فيها النزاع، لأنهم قدروا إرادة جازمة للفعل لا يقترن بها شيء من الفعل، وهذا لا يكون. وإنما يكون ذلك في العزم على أن يفعل، فقد يعزم على الفعل في المستقبل من لا يفعل منه شيئاً في الحال، والعزم على أن يفعل في المستقبل لا يكفي في وجود الفعل، بل

لا بد عند وجوده من حدوث تمام الإرادة المستلزمة للفعل، وهذه هي الإرادة الجازمة.

و«الإرادة الجازمة» إذا فعل معها الإنسان ما يقدر عليه كان في الشرع بمنزلة الفاعل التام: له ثواب الفاعل التام، وعقاب الفاعل التام الذي فعل جميع الفعل المراد حتى يثاب ويعاقب على ما هو خارج عن محل قدرته، مثل المشتركين والمتعاونين على أفعال البر، ومنها ما يتولد عن فعل الإنسان كالداعي إلى هدى أو ضلالة، والسان سنة حسنة، وسنة سيئة، كما ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من تبعه، من غير أن ينقص أوزارهم شيء»[1]، وثبت عنه في الصحيحين أنه قال: «من سن سنة حسنة كان له أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيء»[2].

---

(١) الحديث رواه: مسلم في كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، ج ٤ ص ٢٠٦٠؛ أبو داود في كتاب السنة، باب لزوم السنة، ج ٥ ص ١٦؛ وابن ماجه في المقدمة، باب من سنّ سنّة حسنة أو سيئة، ج ١ ص ٧٥؛ ومالك في كتاب القرآن، باب العمل في الدعاء، ج ١ ص ٢١٨؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٣٩٧؛ والترمذي في أبواب العلم، باب من دعا إلى هدى فأتبع أو إلى ضلالة، ج ٤ ص ١٤٩ وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) الحديث رواه: مسلم في كتاب العلم، باب من سنّ سنة حسنة أو سيئة، ج ٤ ص ٢٠٥٩؛ والنسائي في كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة، ج ٥ ص ٧٦؛ وابن ماجه في المقدمة، باب من سنّ سنة حسنة أو سيئة، ج ١ ص ٧٤؛ وأحمد في مسنده، ج ٤ ص ٣٦٢.

[إرادة الداعي إلى الهدى والضلال:]

فالداعي إلى الهدى وإلى الضلالة، هو طالب مريد كامل الطلب والإرادة لما دعا إليه؛ لكن قدرته بالدعاء والأمر، وقدرة الفاعل بالاتباع والقبول، ولهذا قرن الله تعالى في كتابه بين الأفعال المباشرة والمتولدة فقال: ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة[1] في سبيل الله، ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار، ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح، إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾[2].

فذكر في الآية الأولى ما يحدث عن أفعالهم بغير قدرتهم المنفردة: وهو ما يصيبهم من العطش والجوع والتعب، وما يحصل للكفار بهم من الغيظ، وما ينالونه من العدو. وقال: ﴿كتب لهم به عمل صالح﴾[3]، فأخبر أن هذه الأمور التي تحدث وتتولد من فعلهم وفعل آخر منفصل عنهم يكتب لهم بها عمل صالح، وذكر في الآية الثانية نفس أعمالهم المباشرة التي باشروها بأنفسهم: وهي الإنفاق، وقطع المسافة، فلهذا قال فيها: ﴿إلا كتب لهم﴾[4]، فإن هذه نفسها عمل صالح، وإرادتهم في الموضعين جازمة على مطلوبهم الذي هو أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فما حدث مع هذه الإرادة الجازمة من الأمور التي تعين فيها قدرتهم بعض الإعانة هي لهم عمل صالح.

وكذلك «الداعي إلى الهدى والضلالة» لما كانت إرادته جازمة كاملة

---

(١) المخمصة: المجاعة [مختار الصحاح، ص ١٩٠].
(٢) الآيتان ١٢٠ ــ ١٢١ من سورة التوبة.
(٣) الآية ١٢٠ من سورة التوبة.
(٤) الآية ١٢١ من سورة التوبة.

في هدى الأتباع وضلالهم، وأتى من الإعانة على ذلك بما يقدر عليه، كان بمنزلة العامل الكامل، فله من الجزاء مثل جزاء كل من اتبعه: للهادي مثل أجور المهتدين، وللمضل مثل أوزار الضالين وكذلك السان سنة حسنة وسنة سيئة؛ فإن السنة هي ما رسم للتحري فإن السان كامل الإرادة لكل ما يفعل من ذلك، وفعله بحسب قدرته.

ومن هذا قوله في الحديث المتفق عليه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل»[1]، فالكفل النصيب مثل نصيب القاتل، كما فسره الحديث الآخر، وهو كما استباح جنس قتل المعصوم، لم يكن مانع يمنعه من قتل نفس معصومة، فصار شريكاً في قتل كل نفس، ومنه قوله تعالى: ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً. ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾[2].

ويشبه هذا أنه من كذب رسولاً معيناً كان كتكذيب جنس الرسل، كما قيل فيه: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾[3]، ﴿كذبت عاد المرسلين﴾[4] ونحو ذلك.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا

---

(١) الحديث رواه: البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريته، ج ٦ ص ٣٦٤؛ ومسلم في كتاب القسامة، باب بيان إثم من سن القتل، ج ٣ ص ١٣٠٤؛ والترمذي في أبواب العلم، باب ما جاء أن الدال على الخير كفاعله، ج ٤ ص ١٤٨؛ والنسائي في التحريم، باب تعظيم الدم، ج ٧ ص ٨٢؛ وابن ماجه في الديات، باب التغليظ في قتل مسلم ظلماً، ج ٢ ص ٨٧٣؛ وأحمد في مسنده، ج ١ ص ٣٨٣.

(٢) الآية ٣٢ من سورة المائدة.

(٣) الآية ١٠٥ من سورة الشعراء.

(٤) الآية ١٢٣ من سورة الشعراء.

سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم، وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾[1]، فأخبر أن أئمة الضلال لا يحملون من خطايا الأتباع شيئاً، وأخبر أنهم يحملون أثقالهم، وهي أوزار الأتباع، من غير أن ينقص من أوزار الأتباع شيء، لأن إرادتهم كانت جازمة بذلك، وفعلوا مقدورهم، فصار لهم جزاء كل عامل؛ لأن الجزاء على العمل يستحق مع الإرادة الجازمة، وفعل المقدور منه.

وهو كما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس عن أبـي سفيان: أن النبـي صلى الله عليه وسلم كتب إلى هرقل: «فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين»[2]، فأخبر أن هرقل لما كان إمامهم المتبوع في دينهم أن عليه إثم الأريسيين، وهم الأتباع، وإن كان قد قيل: إن أصل هذه الكلمة من الفلاحين والأكرة، كلفظ الطاء بالتركي، فإن هذه الكلمة تقلب إلى ما هو أعم من ذلك، ومعلوم أنه إذا تولى عن أتباع الرسول كان عليه [مثل] آثامهم من غير أن ينقص من آثامهم شيء كما دل عليه سائر نصوص الكتاب والسنة.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿إلهكم إله واحد، فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون، لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين، وإذا قيل لهم: ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: أساطير الأولين. ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾[3].

---

(١) الآيتان ١٢ ـ ١٣ من سورة العنكبوت.

(٢) الحديث رواه: البخاري في بدء الوحي، ج ١ ص ٣٢؛ ومسلم في كتاب الجهاد، باب كتاب النبـي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، ج ٣ ص ١٣٩٦.

(٣) الآيات ٢٢ ـ ٢٥ من سورة النحل.

فقوله: ﴿ومن أوزار الـذين يضلونهم﴾[1] هي الأوزار الحاصلة لضلال الأتباع، وهي حاصلة من جهة الآمر، ومن جهة المأمور الممتثل فالقدرتان مشتركتان في حصول ذلك الضلال؛ فلهذا كان على هذا بعضه، وعلى هذا بعضه، إلا أن كل بعض من هذين البعضين هو مثل وزر عامل كامل، كما دلت عليه سائر النصوص، مثل قوله: ﴿من دعا إلى الضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة﴾[2].

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً، قالت أخراهم لأولاهم: ربنا! هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار، قال: لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾[3].

فأخبر سبحانه أن الأتباع دعوا على أئمة الضلال بتضعيف العذاب، كما أخبر عنهم بذلك في قوله تعالى: ﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾[4]، وأخبر سبحانه أن لكل من المتَّبَعين والأتباع تضعيفاً من العذاب، ولكن لا يعلم الأتباع التضعيف.

ولهذا وقع عظيم المدح والثناء لأئمة الهدى، وعظيم الذم واللعنة لأئمة الضلال، حتى روي في أثر ــ لا يحضرني إسناده ــ «إنه ما من عذاب في النار إلا يبدأ فيه بإبليس ثم يصعد بعد ذلك إلى غيره، وما من نعيم في الجنة إلا يبدأ فيه بالنبـي صلى الله عليه وسلم ثم ينتقل إلى غيره»[5]، فإنه

---

(١) الآية ٢٥ من سورة النحل.

(٢) سبق تخريج هذا الحديث ص ١٥٢.

(٣) الآية ٣٨ من سورة الأعراف.

(٤) الآيتان ٦٧ ــ ٦٨ من سورة الأحزاب.

(٥) لم أعثر عليه.

هو الإمام المطلق في الهدى لأول بني آدم وآخرهم. كما قال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، آدم ومن دونه تحت لـوائي يوم القيـامة ولا فخـر»[1]، وهو شفيع الأولين والآخرين في الحساب بينهم، وهو أول من يستفتح باب الجنة.

وذلك أن جميع الخلائق أخذ الله عليهم ميثاق الإيمان به كما أخذ على كل نبـي أن يؤمن بمن قبله من الأنبياء، ويصدق بمن بعده. قال تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾[2] الآية. فافتتح الكلام باللام الموطئة للقسم التي يؤتى بها إذا اشتمل الكلام على قسم وشرط؛ وأدخل اللام على ما الشرطية ليبين العموم، ويكون المعنى: مهما آتيكم من كتاب وحكمة فعليكم إذا جاءكم ذلك النبـي المصدق الإيمان به ونصره. كما قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه.

والله تعالى قد نوه بذكره وأعلنه في الملأ الأعلى، ما بين خلق جسد آدم ونفـخ الروح فيـه، كما في حـديث ميسرة الفجـر قال: «قلت: يا رسول الله! متى كنت نبياً؟ ــ وفي رواية ــ متى كتبت نبياً؟ فقال: وآدم بين الروح والجسد»[3] رواه أحمد. وكذلك في حديث العرباض بن سارية

---

(١) الحديث رواه الترمذي من حديث طويل في أبواب تفسير القرآن، ج ٤ ص ٣٧٠، وقال: هذا حديث حسن؛ وابن ماجه في الزهد، باب ذكر الشفاعة، ج ٢ ص ١٤٤٠؛ وأحمد في مسنده، ج ١ ص ٥ مع اختلاف يسير في اللفظ.

(٢) الآية ٨١ من سورة آل عمران.

(٣) الحديث رواه أحمد في مسنده، ج ٥ ص ٥٩؛ والترمذي في أبواب المناقب، باب ما جاء في فضل النبي صلى الله عليه وسلم ولفظه: «متى وجبت لك النبوة؟ قال: وآدم بين الروح والجسد» وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

الذي رواه أحمد وهو حديث حسن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إني عند الله لخاتم النبيين. وإن آدم لمنجدل في طينته»[1] الحديث.

فكتب الله وقدر في ذلك الوقت وفي تلك الحال أمر إمام الذرية كما كتب وقدر حال المولود من ذرية آدم بين خلق جسده ونفخ الروح فيه، كما ثبت ذلك في الصحيحين[2] من حديث ابن مسعود.

فمن آمن به من الأولين والآخرين أثيب على ذلك، وإن كان ثواب من آمن به وأطاعه في الشرائع المفصلة أعظم من ثواب من لم يأت إلا بالإيمان المجمل: على أنه إمام مطلق لجميع الذرية، وأن له نصيباً من إيمان كل مؤمن من الأولين والآخرين؛ كما أن كل ضلال وغواية في الجن والإنس لإبليس منه نصيب، فهذا يحقق الأثر المروي ويؤيد ما في نسخة شعيب بن أبي حمزة عن الزهري عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلاً ــ إما من مراسيل الزهري، وإما من مراسيل من فوقه من التابعين ــ قال: «بعثت داعياً وليس إلي من الهداية شيء، وبعث إبليس مزيناً ومغوياً وليس إليه من الضلالة شيء»[3].

ومما يدخل في هذا الباب من بعض الوجوه قوله في الحديث الذي في

---

(١) رواه أحمد في مسنده، ج ٤ ص ١٢٧؛ ورواه الحاكم في المستدرك، ج ٢ ص ٦٠٠ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد. قا الذهبي: في التلخيص صحيح.

(٢) انظر صحيح البخاري أول كتاب القدر، ج ١١ ص ٤٧٧؛ وصحيح مسلم في كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، ج ٤ ص ٢٠٣٦.

(٣) رواه ابن عدي في الكامل، ج ٣ ص ٩١٠، وقال: وهذا لا يعرف إلا بعيسى العسقلاني عن إسحاق بن الفرات عن خالد عن سماك وفي قلبي من هذا الحديث شيء عن خالد عن سماك ولا أدري سمع خالد من سماك أو لحقه أم لا ولا أشك أن خالداً هذا هو خالد الخراساني فكان الحديث مرسلاً عنه عن سماك، ورواه العقيلي في الضعفاء، ج ٢ ص ٩.

السنن: «وزنت بالأمة فرجحت، ثم وزن أبو بكر بالأمة فرجح ثم وزن عمر بالأمة فرجح، ثم رفع الميزان»[1].

فأما كون النبـي صلى الله عليه وسلم راجحاً بالأمة فظاهر، لأن له مثل أجر جميع الأمة مضافاً إلى أجره، وأما أبو بكر وعمر فلأن لهما معاونة مع الإرادة الجازمة في إيمان الأمة كلها، وأبو بكر كان في ذلك سابقاً لعمر وأقوى إرادة منه، فإنهما هما اللذان كانا يعاونان النبـي صلى الله عليه وسلم على إيمان الأمة في دقيق الأمور وجليلها، في محياه وبعد وفاته.

ولهذا سأل أبو سفيان يوم أحد: «أفي القوم محمد؟ أفي القوم ابن أبـي قحافة؟ أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال النبـي صلى الله عليه وسلم: «لا تجيبوه. فقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم. فلم يملك عمر نفسه أن قال: كذبت يا عدو الله! إن الذي ذكرت لأحياء وقد بقي لك ما يسوءك»[2] رواه البخاري ومسلم، حديث البراء بن عازب، فأبو سفيان ــ رأس الكفر حينئذ ــ لم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة، لأنهم قادة المؤمنين. كما ثبت في الصحيحين أن علي بن أبـي طالب لما وضعت جنازة عمر قال: «والله ما على وجه الأرض أحد أحب أن ألقى الله بعمله من هذا المسجى، والله إني لأرجو أن يحشرك الله مع صاحبيك، فإني كثيراً ما كنت أسمع

---

(١) الحديث رواه أحمد في مسنده، ج ٢ ص ٧٦؛ ورواه مع اختلاف في اللفظ أبو داود في كتاب السنة، باب في الخلفاء، ج ٥ ص ٣٠، والترمذي في الرؤيا، باب ما جاء في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم في الميزان والدلو، ج ٣ ص ٣٦٩، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة أحد، ج ٧ ص ٣٤٩، ولم أجده في مسلم كما ذكر ابن تيمية.

النبـي صلى الله عليه وسلم يقول: دخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر، وذهبت أنا وأبو بكر وعمر»[1].

وأمثال هذه النصوص كثيرة، تبين سبب استحقاقهما إن كان لهما مثل أعمال جميع الأمة، لوجود الإرادة الجازمة مع التمكن من القدرة على ذلك؛ كله بخلاف من أعان على بعض ذلك دون بعض ووجدت منه إرادة في بعض ذلك دون بعض.

و«أيضاً» فالمريد إرادة جازمة مع فعل المقدور هو بمنزلة العـامل الكامل، وإن لم يكن إماماً وداعياً، كما قال سبحانه: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً، درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً﴾[2].

[الإرادة الجازمة مع العجز عن الفعل:]

فالله تعالى نفى المساواة بين المجاهد والقاعد الذي ليس بعاجز، ولم ينف المساواة بين المجاهد وبين القاعد العاجز، بل يقال: دليل الخطاب يقتضي مساواته إياه. ولفظ الآية صريح. استثنى أولو الضرر من نفي المساواة، فالاستثناء هنا هو من النفي، وذلك يقتضي أن أولي الضرر قد يساوون القاعدين، وإن لم يساووهم في الجميع، ويوافقه ما ثبت عن النبـي صلى الله عليه وسلم أنه قال في غزوة تبوك: «إن بالمدينة رجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم. قالوا: وهم بالمدينة. قال: وهم

---

(١) الحديث رواه: البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب، ج ٧ ص ٤١/٤٢؛ ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه، ج ٤ ص ١٨٥٩.

(٢) الآيتان ٩٥ ــ ٩٦ من سورة النساء.

بالمدينة حبسهم العذر»[1] فأخبر أن القاعد بالمدينة الذي لم يحبسه إلاّ العذر هو مثل من معهم في هذه الغزوة، ومعلوم أن الذي معه في الغزوة يثاب كل واحد منهم ثواب غاز على قدر نيته فكذلك القاعدون الذين لم يحبسهم إلا العذر.

ومن هذا الباب ما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل وهو صحيح مقيم»[2]، فإنه إذا كان يعمل في الصحة والإقامة عملاً ثم لم يتركه إلا لمرض أو سفر ثبت أنه إنما ترك لوجود العجز والمشقة، لا لضعف النية وفتورها، فكان له من الإرادة الجازمة التي لم يتخلف عنها الفعل إلا لضعف القدرة، ما للعامل، والمسافر وإن كان قادراً مع مشقة كذلك بعض المرض، إلا أن القدرة الشرعية هي التي يحصل بها الفعل من غير مضرة راجحة، كما في قوله تعالى: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾[3]، وقوله: ﴿فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً﴾[4]، ونحو ذلك ليس المعتبر في الشرع القدرة التي يمكن وجود

---

(١) الحديث رواه: البخاري في كتاب المغازي، باب نزول النبي صلى الله عليه وسلم الحجر، ج ٨ ص ١١٦؛ ومسلم في كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر، ج ٣ ص ١٥١٨ عن جابر؛ وأبو داود في كتاب الجهاد، باب في الرخصة في القعود من العذر، ج ٣ ص ٢٥؛ وابن ماجه في كتاب الجهاد، باب من حبسه العذر عن الجهاد، ج ٢ ص ٩٢٣؛ وأحمد في مسنده، ج ٣ ص ١٦٠.

(٢) الحديث رواه: البخاري في كتاب الجهاد، باب ما يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة، ج ٦ ص ١٣٦؛ وأبو داود في كتاب الجنائز، باب إذا كان الرجل يعمل عملاً صالحاً فشغله عنه مرض أو سفر، ج ٣ ص ٤٧١؛ وأحمد في مسنده، ج ٤ ص ٤١٠، ولم أجده في مسلم.

(٣) الآية ٩٧ من سورة آل عمران.

(٤) الآية ٤ من سورة المجادلة.

الفعل بها على أي وجه كان، بل لا بد أن تكون المكنة خالية عن مضرة راجحة، بل أو مكافية.

ومن هذا الباب ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من جهز غازياً فقد غزا، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا»[1]، وقوله: «من فطر صائماً فله مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء»[2]، فإن الغزو يحتاج إلى جهاد بالنفس، وجهاد بالمال، فإذا بذل هذا بدنه، وهذا ماله مع وجود الإرادة الجازمة في كل منهما كان كل منهما مجاهداً بإرادته الجازمة، ومبلغ قدرته، وكذلك لا بد للغازي من خليفة في الأهل، فإذا خلفه في أهله بخير فهو أيضاً غاز، وكذلك الصيام لا بد فيه من إمساك، ولا بد فيه من العشاء الذي به يتم الصوم، وإلا فالصائم الذي لا يستطيع العشاء لا يتمكن من الصوم.

وكذلك قوله في الحديث الصحيح: «إذا أنفقت المرأة من مال زوجها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت، ولزوجها مثل ذلك، لا ينقص بعضهم من أجور بعض شيئاً»[3]، وكذلك قوله في حديث أبـي موسى:

---

(١) الحديث رواه: البخاري في كتاب الجهاد، باب فضل من جهز غازياً أو خلفه بخير، ج ٦ ص ٤٩؛ ومسلم في كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي، ج ٣ ص ١٥٠٧؛ وأبو داود في كتاب الجهاد، باب ما يجزىء من الغزو، ج ٣ ص ٢٦؛ والترمذي في فضائل الجهاد، باب ما جاء فيمن جهز غازياً، ج ٣ ص ٩٢؛ والنسائي في كتاب الجهاد، باب فضل من جهز غازياً، ج ٦ ص ٤٦؛ والدارمي في كتاب الجهاد، باب في فضل من جهز غازياً، ج ٢ ص ٢٠٩؛ وأحمد في مسنده، ج ٤ ص ١١٥.

(٢) الحديث رواه: الترمذي في كتاب الصوم، باب ما جاء في فضل من فطر صائماً، ج ٢ ص ١٥١، وقال: هذا حديث حسن صحيح؛ والدارمي في كتاب الصوم، باب الفضل لمن فطر صائماً، ج ٢ ص ٧؛ وابن ماجه في الصيام، باب في ثواب من فطر صائماً، ج ١ ص ٥٥٥؛ وأحمد في مسنده، ج ٤ ص ١١٦.

(٣) الحديث رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب أجر الخازن الأمين، ج ٢ ص ٧١٠؛ والبخاري في كتاب الزكاة، باب من أمر خادمه بالصدقة، ج ٣ ص ٢٩٣؛ وأبو داود في=

«الخازن الأمين الذي يعطي ما أمر به كاملاً موفراً طيبة به نفسه أحد المتصدقين»[1] أخرجاه. وذلك أن إعطاء الخازن الأمين الذي يعطي ما أمر به موفراً طيبة به نفسه لا يكون إلا مع الإرادة الجازمة الموافقة لإرادة الآمر، وقد فعل مقدوره وهو الامتثال، فكان أحد المصتدقين.

ومن هذا الباب حديث أبي كبشة الأنماري الذي رواه أحمد وابن ماجه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنما الدنيا لأربعة: رجل آتاه الله علماً ومالاً فهو يعمل فيه بطاعة الله، فقال رجل: لو أن لي مثل فلان لعملت بعمله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم فهما في الأجر سواء»[2]، وقد رواه الترمذي مطولاً وقال حديث حسن صحيح، فهذا التساوي مع «الأجر والوزر» هو في حكاية حال من قال ذلك، وكان صادقاً فيه، وعلم الله منه إرادة جازمة لا يتخلف عنها الفعل إلا لفوات القدرة، فلهذا استويا في الثواب والعقاب.

وليس هذه الحال تحصل لكل من قال: «لو أن لي ما لفلان لفعلت مثل ما يفعل»، إلا إذا كانت إرادته جازمة يجب وجود الفعل معها إذا كانت القدرة حاصلة، وإلا فكثير من الناس يقول ذلك عن عزم، لو اقترنت به القدرة لانفسخت عزيمته، كعامة الخلق يعاهدون وينقضون،

= كتاب الزكاة، باب المرأة تتصدق من بيت زوجها، ج ٢ ص ٣١٥/٣١٦؛ والترمذي في الزكاة، باب ما جاء في نفقة المرأة من بيت زوجها، ج ٢ ص ٩١؛ وابن ماجه في التجارات، باب ما للمرأة من مال زوجها، ج ٢ ص ٧٧٠؛ والنسائي في كتاب الزكاة، باب صدقة المرأة من بيت زوجها، ج ٥ ص ٦٥؛ وأحمد في مسنده، ج ٦ ص ٤٤.

(١) الحديث رواه: البخاري في كتاب الإجارة، باب استئجار الرجل الصالح، ج ٤ ص ٤٣٩؛ ومسلم في كتاب الزكاة، باب أجر الخازن الأمين، ج ٢ ص ٧١٠؛ والنسائي، ج ٥ ص ٧٩/ ٨٠؛ وأحمد في مسنده، ج ٤ ص ٣٩٤.

(٢) رواه الترمذي في أبواب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، ج ٣ ص ٣٨٥، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وليس كل من عزم على شيء عزماً جازماً قبل القدرة عليه [وعدم] الصوارف عن الفعل تبقى تلك الإرادة عند القدرة المقارنة للصوارف، كما قال تعالى: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾[1]، وكما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾[2]، وكما قال: ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون﴾[3].

وحديث أبي كبشة في النيات[4] مثل حديث البطاقة في الكلمات. وهو الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن عبدالله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أن رجلاً من أمة النبي صلى الله عليه وسلم ينشر الله له يوم القيامة تسعة وتسعين سجلاً كل سجل منها مدى البصر، ويقال له هل تنكر من هذا شيئاً؟ هل ظلمتك؟ فيقول: لا يا رب. فيقال له: لا ظلم عليك اليوم فيؤتى ببطاقة فيها التوحيد فتوضع في كفة والسجلات في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة»[5]، فهذا لما اقترن بهذه الكلمة من الصدق والإخلاص والصفاء وحسن النية، إذ الكلمات والعبادات وإن اشتركت في الصورة الظاهرة فإنها تتفاوت بحسب أحوال القلوب تفاوتاً عظيماً.

ومثل هذا الحديث الذي في حديث: المرأة البغي التي سقت كلباً

---

(١) الآية ١٤٣ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ٢ من سورة الصف.

(٣) الآيتان ٧٥ ــ ٧٦ من سورة التوبة.

(٤) وهو الحديث الذي تقدم في ص ١٦٣ وأوله «إنما الدنيا لأربعة.. الخ».

(٥) الحديث رواه الترمذي في أبواب الإيمان، باب فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، ج ٤ ص ١٣٤ وقال: «هذا حديث حسن غريب»؛ وابن ماجه في الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة، ج ٢ ص ١٤٣٧؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٢١٣.

فغفر الله لها[1]، فهذا لما حصل في قلبها من حسن النية والرحمة إذ ذاك ومثله قوله صلى الله عليه وسلم: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت. يكتب الله له بها سخطه إلى يوم القيامة»[2].

[العبد بين الهم والعمل وأمثلة لذلك:]

وبهذا تبين: أن الأحاديث التي بها التفريق بين الهام والعامل وأمثالها، إنما هي فيما دون الإرادة الجازمة التي لا بد أن يقترن بها الفعل. كما في الصحيحين عن أبي رجاء العطاردي عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بيّن ذلك: فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة. فإن هم بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات، ومن هم بسيئة ولم يعملها كتبها الله له حسنة كاملة، فإن هم بها وعملها كتبها الله له عنده سيئة واحدة»[3]، وفي الصحيحين نحوه من حديث أبي هريرة.

---

(١) ولفظ هذا الحديث «أن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له بموقها. فغفر لها». رواه مسلم في كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٥٠٧.

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، ج ١١ ص ٣٠٨؛ والترمذي في أبواب الزهد، باب ما جاء في قلة الكلام، ج ٣ ص ٣٨٣؛ وقال: هذا حديث حسن صحيح؛ وابن ماجه في الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، ج ٢ ص ١٣١٣؛ ومالك في الموطأ، في كتاب الكلام، باب ما يؤمر به من التحفظ في الكلام، ج ٢ ص ٩٨٥؛ وأحمد في مسنده، ج ٣ ص ٤٦٩.

(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، ج ١١ ص ٣٢٣؛ ومسلم في كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة، ج ١ ص ١١٨؛ وأحمد في مسنده، ج ١ ص ٣١٠.

فهذا التقسيم هو في رجل يمكنه الفعل؛ ولهذا قال: «فعملها»، «فلم يعملها». ومن أمكنه الفعل فلم يفعل لم تكن إرادته جازمة؛ فإن الإرادة الجازمة مع القدرة مستلزمة للفعل، كما تقدم أن ذلك كاف في وجود الفعل، وموجب له؛ إذ لو توقف على شيء آخر لم تكن الإرادة الجازمة مع القدرة تامة كافية في وجود الفعل، ومن المعلوم والمحسوس أن الأمر بخلاف ذلك، ولا ريب أن «الهم» و «العزم» و «الإرادة» ونحو ذلك قد يكون جازماً لا يتخلف عنه الفعل إلا للعجز، وقد لا يكون هذا على هذا الوجه من الجزم.

فهذا «القسم الثاني» يفرق فيه بين المريد والفاعل؛ بل يفرق بين إرادة وإرادة، إذ الإرادة هي عمل القلب الذي هو ملك الجسد. كما قال أبو هريرة: القلب ملك، والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده، وتحقيق ذلك ما في الصحيحين من حديث النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب»[1]، فإذا هم بحسنة فلم يعملها كان قد أتى بحسنة، وهي الهم بالحسنة فتكتب له حسنة كاملة، فإن ذلك طاعة وخير، وكذلك هو في عرف الناس كما قيل:

لأشكرن لك معروفاً هممت به | إن اهتمامك بالمعروف معروف
ولا ألومك إن لم يمضه قدر | فالشيء بالقدر المحتوم مصروف[2]

فإن عملها كتبها الله له عشر حسنات، لما مضى من رحمته أن من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف. كما قال تعالى: ﴿مثل

(١) سبق تخريج هذا الحديث ص ٧٦.
(٢) قائل هذين البيتين عبد الأعلى بن حماد [انظر المستطرف في كل فن مستظرف، ص ٢٤١].

الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة﴾[1]، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح لمن جاء بناقة: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة مخطومة، مزمومة»[2] إلى أضعاف كثيرة. وقد روي عن أبي هريرة مرفوعاً: «إنه يعطى به ألف ألف حسنة»[3].

وأما الهام بالسيئة الذي لم يعملها وهو قادر عليها فإن الله لا يكتبها عليه كما أخبر به في الحديث الصحيح. وسواء سمي همه إرادة أو عزماً أو لم يسم، متى كان قادراً على الفعل وهم به وعزم عليه ولم يفعله مع القدرة فليست إرادته جازمة، وهذا موافق لقوله في الحديث الصحيح، حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم به أو تعمل به»[4]، فإن ما هم به العبد من الأمور التي يقدر عليها من الكلام والعمل ولم يتكلم بها ولم يعملها لم تكن إرادته لها جازمة، فتلك مما لم يكتبها الله عليه، كما شهد به قوله: «من هم بسيئة فلم يعملها»[5] ومن حكى الإجماع كابن عبدالبر وغيره. في هذه المسألة على هذا الحديث فهو صحيح بهذا الاعتبار.

وهذا الهام بالسيئة: فإما أن يتركها لخشية الله وخوفه، أو يتركها لغير

---

(١) الآية ٢٦١ من سورة البقرة.

(٢) الحديث رواه: مسلم في كتاب الإمارة، باب فضل الصدقة في سبيل الله وتضعيفها، ج ٣ ص ١٥٠٥؛ والنسائي في كتاب الجهاد، باب فضل الصدقة في سبيل الله عز وجل، ج ٦ ص ٤٩؛ والدارمي في كتاب الجهاد، باب فضل النفقة في سبيل الله عز وجل، ج ٢ ص ٢٠٣/٢٠٤؛ وأحمد في مسنده، ج ٤ ص ١٢١؛ وليس فيه «مزمومة».

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره فيما ذكره ابن كثير في تفسيره، ج ١ ص ٢٩٩.

(٤) سبق تخريج هذا الحديث ص ١٤٩.

(٥) سبق تخريج هذا الحديث، ص ١٤٩.

ذلك؛ فإن تركها لخشية الله كتبها الله له عنده حسنة كاملة كما قد صرح به في الحديث، وكما قد جاء في الحديث الآخر: «اكتبوها له حسنة فإنما تركها من أجلي»[١]، أو قال: «من جرائي». وأما إن تركها لغير ذلك لم تكتب عليه سيئة، كما جاء في الحديث الآخر: «فإن لم يعملها لم تكتب عليه»[٢]. وبهذا تتفق معاني الأحاديث.

وإن عملها لم تكتب عليه إلا سيئة واحدة، فإن الله تعالى لا يضعف السيئات بغير عمل صاحبها، ولا يجزي الإنسان في الآخرة إلا بما عملت نفسه، ولا تمتلىء جهنم إلا من أتباع إبليس من الجنة والناس، كما قال تعالى: ﴿لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾[٣]؛ ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأنس: «أن الجنة يبقى فيها فضل فينشىء الله لها أقواماً في الآخرة، وأما النار فإنه ينزوي بعضها إلى بعض حتى يضع عليها قدمه فتمتلىء بمن دخلها من أتباع إبليس»[٤].

ولهذا كان الصحيح المنصوص عن أئمة العدل كأحمد وغيره الوقف في أولاد المشركين، وأنه لا يجزم لمعين منهم بجنة ولا نار، بل يقال فيهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديثين الصحيحين: حديث أبي هريرة وابن عباس: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[٥]. فحديث

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ ج ١٣ ص ٤٦٥ مع اختلاف يسير في اللفظ.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب إذا همّ العبد بحسنة، ج ١ ص ١١٨.

(٣) الآية ٨٥ من سورة ص.

(٤) الحديث رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قوله تعالى ﴿سبحان ربك رب العزة﴾ ج ١٣ ص ٣٦٨؛ ومسلم في كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، ج ٤ ص ٢١٨٦/٢١٨٧؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٢١٤.

(٥) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، ج ٣ ص ٢٤٥؛ ومسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، ج ٤ ص ٢٠٤٨/٢٠٤٩ وغيرهما.

أبـي هريرة في الصحيحين، وحديث ابن عباس في البخاري، وفي حديث سمرة بن جندب الذي رواه البخاري: «أن منهم من يدخل الجنة»[1]، وثبت: «أن منهم من يدخل النار»[2] كما في صحيح مسلم في قصة الغلام الذي قتله الخضر، وهذا يحقق ما روي من وجوه: أنهم يمتحنون يوم القيامة فيظهر على علم الله فيهم، فيجزيهم حينئذ على الطاعة والمعصية، وهذا هو الذي حكاه الأشعري عن أهل السنة والحديث واختاره.

وأما أئمة الضلال ــ الذين عليهم أوزار من أضلوه ــ ونحوهم، فقد بينا أنهم إنما عوقبوا لوجود الإرادة الجازمة مع التمكن من الفعل؛ بقوله في حديث أبـي كبشة: «فهما في الوزر سواء»[3]، وقوله: «من دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من تبعه»[4]، فإذا وجدت الإرادة الجازمة، والتمكن من الفعل صاروا بمنزلة الفاعل التام، والهام بالسيئة التي لم يعملها مع قدرته عليها لم توجد منه إرادة جازمة، وفاعل السيئة التي تمضي لا يجزى بها إلا سيئة واحدة، كما شهد به النص وبهذا يظهر قول الأئمة، حيث قال الإمام أحمد: «الهم» همان: هم خطرات، وهم إصرار. فهم الخطرات يكون من القادر، فإنه لو كان همه إصراراً جازماً وهو قادر لوقع الفعل.

ومن هذا الباب هم «يوسف»، حيث قال تعالى: ﴿ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه﴾[5] الآية. وأما هم المرأة التي راودته فقد قيل: إنه كان هم إصرار لأنها فعلت مقدورها، وكذلك ما ذكره عن

---

(١) رواه البخاري في كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح، ج ١٢ ص ٤٣٨/٤٣٩ ضمن حديث طويل.

(٢) رواه مسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، ج ٤ ص ٢٠٥٠.

(٣) سبق تخريج هذا الحديث ص ١٥٠.

(٤) سبق تخريج هذا الحديث ص ١٥٢.

(٥) الآية ٢٤ من سورة يوسف.

المنافقين في قوله تعالى: ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾[1] فهذا الهم المذكور عنهم هم مذموم، كما ذمهم الله عليه، ومثله يذم وإن لم يكن جازماً، كما سنبينه في آخر الجواب من الفرق بين ما ينافي الإيمان، وبين ما لا ينافيه، وكذلك الحريص على السيئات الجازم بإرادة فعلها، إذا لم يمنعه إلا مجرد العجز، فهذا يعاقب على ذلك عقوبة الفاعل، لحديث أبـي كبشة، ولما في الحديث الصحيح: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. قيل: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»[2]، وفي لفظ: «إنه أراد قتل صاحبه»[3].

فهذه «الإرادة» هي الحرص، وهي الإرادة الجازمة، وقد وجد معها المقدور، وهو القتال لكن عجز عن القتل، وليس هذا من الهم الذي لا يكتب، ولا يقال إنه استحق ذلك بمجرد قوله: لو أن لي ما لفلان لعملت مثل ما عمل، فإن تمني الكبائر ليس عقوبته كعقوبة فاعلها بمجرد التكلم، بل لا بد من أمر آخر، وهو لم يذكر أنه يعاقب على كلامه، وإنما ذكر أنهما في الوزر سواء.

وعلى هذا فقوله: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تكلم به أو تعمل»[4] لا ينافي العقوبة على الإرادة الجازمة التي لا بد أن يقترن بها الفعل، فإن «الإرادة الجازمة» هي التي يقترن بها المقدور من الفعل، وإلا فمتى لم يقترن بها المقدور من الفعل لم تكن جازمة، فالمريد الزنا والسرقة وشرب الخمر العازم على ذلك متى كانت إرادته جازمة عازمة فلا بد أن يقترن بها من الفعل ما يقدر عليه، ولو أنه يقربه إلى جهة

(١) الآية ٧٤ من سورة التوبة.
(٢) رواه البخاري، ج ١ ص ٨٥.
(٣) رواه مسلم في كتاب الفتن، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، ج ٤ ص ٢٢١٤.
(٤) سبق تخريج هذا الحديث ص ١٤٩.

المعصية: مثل تقرب السارق إلى مكان المال المسروق، ومثل نظر الزاني واستماعه إلى المزني به، وتكلمه معه، ومثل طلب الخمر والتماسها ونحو ذلك، فلا بد مع الإرادة الجازمة من شيء من مقدمات الفعل المقدور، بل مقدمات الفعل توجد بدون الإرادة الجازمة عليه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، في الحديث المتفق عليه: «العينان تزنيان وزناهما النظر، واللسان يزني وزناه النطق، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي، والقلب يتمنى ويشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»[1]، وكذلك حديث أبي بكرة المتفق عليه: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. قيل: يا رسول الله! هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه أراد قتل صاحبه»، وفي رواية في الصحيحين: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»[2].

فإنه أراد ذلك إرادة جازمة فعل معها مقدوره، منعه منها من قتل صاحبه العجز، وليست مجرد هم ولا مجرد عزم على فعل مستقبل، فاستحق حينئذ النار، كما قدمنا من أن الإرادة الجازمة التي أتى معها بالممكن يجري صاحبها مجرى الفاعل التام.

و «الإرادة التامة» قد ذكرنا أنه لا بد أن يأتي معها بالمقدور أو بعضه، وحيث ترك الفعل المقدور فليست جازمة، بل قد تكون جازمة فيما فعل دون ما ترك، مع القدرة، مثل الذي يأتي بمقدمات الزنا: من اللمس، والنظر والقبلة، ويمتنع عن الفاحشة الكبرى؛ ولهذا قال في حديث

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج، ج ١١ ص ٢٦؛ ومسلم في كتاب القدر، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا، ج ٤ ص ٢٠٤٧؛ وأبو داود في كتاب النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر، ج ٢ ص ٦١٢؛ وأحمد فق مسنده، ج ٢ ص ٢٧٦.

(٢) سبق تخريجه ص ١٧٠.

أبـي هريرة الصحيح: «العين تزني والأذن تزني، واللسان يزني ــ إلى أن قال ــ والقلب يتمنى ويشتهي»[1]، أي يتمنى الوطء ويشتهيه، ولم يقل «يريد»، ومجرد الشهوة والتمني ليس إرادة جـازمة، ولا يستلزم وجـود الفعل، فلا يعاقب على ذلك؛ وإنما يعاقب إذا أراد إرادة جازمة مع القدرة والإرادة الجازمة [التي]يصدقها الفرج.

ومن هذا الحديث الذي في الصحيحين عن ابن مسعود: «أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة: فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فأنزل الله تعالى: ﴿أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات﴾[2] الآية، فقال الرجل: ألي هذه؟ فقال: لمن عمل بها من أمتي»[3]، فمثل هذا الرجل وأمثاله لا بد في الغالب أن يهم بما هو أكبر من ذلك، كما قـال: «والقلب يتمنى ويشتهي، والفرج يصـدق ذلك أو يكذبه»[4] لكن إرادته القلبية للقبلة كانت إرادة جازمة، فاقترن بها فعل القبلة بالقدرة، وأما إرادته للجماع فقد تكون غير جازمة، وقد تكون جازمة، لكن لم يكن قادراً. والأشبه في الذي نزلت فيه الآية أنه كان متمكناً لكنه لم يفعل.

فتفريق أحمد وغيره: بين هم الخطرات، وهم الإصرار هو الذي عليه الجواب، فمن لم يمنعه من الفعل إلا العجز فلا بد أن يفعل ما يقدر عليه من مقدماته، وإن فعله وهو عازم على العود متى قدر فهو مصر، ولهذا قال ابن المبارك المصر الذي يشرب الخمر اليوم، ثم لا يشربها إلى شهر، وفي رواية إلى ثلاثين سنة، ومن نيته أنه إذا قدر على شربها [شربها]. وقد يكون مصراً إذا عزم على الفعل في وقت دون وقت، كمن يعزم على ترك

(١) سبق تخريجه ص ١٧١.
(٢) الآية ١١٤ من سورة هود.
(٣) سبق تخريجه ص ٦٨.
(٤) سبق تخريجه ص ١٧١.

المعاصي في شهر رمضان دون غيره، فليس هذا بتائب مطلقاً. ولكنه تارك للفعل في شهر رمضان، ويثاب إذا كان ذلك الترك لله وتعظيم شعائر الله، واجتناب محارمه في ذلك الوقت، ولكنه ليس من التائبين الذين يغفر لهم بالتوبة مغفرة مطلقة، ولا هو مصر مطلقاً. وأما الذي وصفه ابن المبارك فهو مصر إذا كان من نيته العود إلى شربها.

قلت: والذي قد ترك المعاصي في شهر رمضان من نيته العود إليها في غير شهر رمضان مصر أيضاً. لكن نيته أن يشربها إذا قدر عليها، غير النية مع وجود القدرة، فإذا قدر قد تبقى نيته وقد لا تبقى، ولكن متى كان مريداً إرادة جازمة لا يمنعه إلا العجز فهو معاقب على ذلك. كما تقدم.

وتقدم أن مثل هذا لا بد أن يقترن بإرادته ما يتمكن من الفعل معه، وبهذا يظهر ما يذكر عن الحارث المحاسبي[1] أنه حكى الإجماع على أن الناوي للفعل ليس بمنزلة الفاعل له، فهذا الإجماع صحيح مع القدرة، فإن الناوي للفعل القادر عليه ليس بمنزلة الفاعل، وأما الناوي الجازم الآتي بما يمكن فإنه بمنزلة الفاعل التام. كما تقدم.

ومما يوضح هذا أن الله سبحانه في القرآن رتب الثواب والعقاب على مجرد الإرادة كقوله تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً﴾[2]، وقال: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾[3]، وقال: ﴿من

---

(١) هو الحارث بن أسد المحاسبي الزاهد المشهور، أبو عبدالله البغدادي، صاحب التصانيف، مقبول من الطبقة الحادية عشرة، مات سنة ٢٤٣هـ [تقريب التهذيب، ص ٥٩].

(٢) الآية ١٨ من سورة الإسراء.

(٣) الآيتان ١٥ ـ ١٦ من سورة هود.

كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها، وما له في الآخرة من نصيب﴾[1].

فرتب الثواب والعقاب على كونه يريد العاجلة، ويريد الحياة الدنيا، ويريد حرث الدنيا، وقال في آية هود: ﴿نوف إليهم أعمالهم فيها ـ إلى أن قال ـ وباطل ما كانوا يعملون﴾[2]، فدل على أنه كان لهم أعمال بطلت، وعوقبوا على أعمال أخرى عملوها، وأن الإرادة هنا مستلزمة للعمل، ولما ذكر إرادة الآخرة، قال: ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن﴾[3]. وذلك لأن إرادة الآخرة وإن استلزمت عملها فالثواب إنما هو على العمل المأمور به، لا كل سعي، ولا بد مع ذلك من الإيمان.

ومنه قوله: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها﴾[4] الآية، ﴿وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة﴾[5] فهذا نظير تلك الآية التي في سورة هود، وهذا يطابق قوله: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما»[6] إلا أنه قال: «فإنه أراد قتل صاحبه»[7]، أو: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»[8]، فذكر الحرص والإرادة على القتل وهذا لا بد أن يقترن به فعل، وليس هذا مما دخل في حديث العفو: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها»[9].

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الشورى.
(٢) الآيتان ١٥ ــ ١٦ من سورة هود.
(٣) الآية ١٩ من سورة الإسراء.
(٤) الآية ٢٨ من سورة الأحزاب.
(٥) الآية ٢٩ من سورة الأحزاب.
(٦) سبق تخريجه ص ١٥٠.
(٧) سبق تخريجه ص ١٧٠.
(٨) سبق تخريجه ص ١٧٠.
(٩) سبق تخريجه ص ١٤٩.

ومما يبنى على هذا مسألة معروفة ـ بين أهل السنة وأكثر العلماء وبين بعض القدرية ـ وهي «توبة العاجز عن الفعل» كتوبة المجبوب عن الزنا، وتوبة الأقطع العاجز عن السرقة، ونحوه من العجز؛ فإنها توبة صحيحة عند جماهير العلماء من أهل السنة وغيرهم، وخالف في ذلك بعض القدرية؛ بناء على أن العاجز عن الفعل لا يصح أن يثاب على تركه الفعل؛ بل يعاقب على تركه وليس كذلك؛ بل إرادة العاجز عليها الثواب والعقاب كما بينا، وبينا أن الإرادة الجازمة مع القدرة تجري مجرى الفاعل التام، فهذا العاجز إذا أتى بما يقدر عليه من مباعدة أسباب المعصية بقوله وعمله وهجرانها وتركها بقلبه، كالتائب القادر عليها سواء فتوبة هذا العاجز عن كمال الفعل، كإصرار العاجز عن كمال الفعل.

ومما يبنى على هذا «المسألة المشهورة في الطلاق» وهو أنه لو طلق في نفسه وجزم بذلك، ولم يتكلم به، فإنه لا يقع به الطلاق عند جمهور العلماء. وعند مالك في إحدى الروايتين يقع، وقد استدل أحمد وغيره من الأئمة على ترك الوقوع بقوله: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها»[1]، فقال المنازع: هذا المتجاوز عنه، إنما هو حديث النفس، والجازم بذلك في النفس ليس من حديث النفس».

فقال المنازع لهم: قد قال: «ما لم تكلم به أو تعمل به»[2]، فأخبر أن التجاوز عن حديث النفس امتد إلى هذه الغاية التي هي الكلام به والعمل به، كما ذكر ذلك في صدر السؤال من استدلال بعض الناس وهو استدلال حسن؛ فإنه لو كان حديث النفس إذا صار عزماً ولم يتكلم به أو يعمل يؤاخذ به لكان خلاف النص، لكن يقال: هذا في المأمور [صاحب] المقدرة التي يمكن فيها الكلام والعمل، إذا لم يتكلم ولم يعمل، وأما الإرادة الجازمة

---

(١) سبق تخريجه ص ١٤٩.

(٢) سبق تخريجه ص ١٤٩.

المأتي فيها بالمقدور فتجري مجرى التي أتى معها بكمال العمل. بدليل الأخرس لما كان عاجزاً عن الكلام، وقد يكون عاجزاً عن العمل باليدين ونحوهما، لكنه إذا أتى بمبلغ طاقته من الإشارة جرى ذلك مجرى الكلام من غيره، والأحكام والثواب والعقاب وغير ذلك.

وأما الوجه الآخر الذي احتج به وهو أن العزم والهم داخل في حديث النفس المعفو عنه مطلقاً فليس كذلك؛ بل إذا قيل: إن الإرادة الجازمة مستلزمة لوجود فعل ما يتعلق به الذم والعقاب وغير ذلك، يصح ذلك؛ فإن المراد إن كان مقدوراً مع الإرادة الجازمة وجب وجوده، وإن كان ممتنعاً فلا بد مع الإرادة الجازمة من فعل بعض مقدماته، وحيث لم يوجد فعل أصلاً فهو هم. وحديث النفس ليس إرادة جازمة ولهذا لم يجيء في النصوص العفو عن مسمى الإرادة والحب والبغض والحسد والكبر والعجب وغير ذلك من أعمال القلوب، إذ كانت هذه الأعمال حيث وقع عليهم ذم وعقاب فلأنها تمت حتى صارت قولاً وفعلاً.

وحينئذ قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تجاوز لأمتي»[1] الحديث حق، والمؤاخذة بالإرادات المستلزمة لأعمال الجوارح حق، ولكن طائفة من الناس قالوا: إن الإرادة الجازمة قد تخلو عن فعل أو قول، ثم تنازعوا في العقاب عليها، فكان القاضي أبو بكر ومن تبعه كأبي حامد وأبي الفرج ابن الجوزي يرون العقوبة على ذلك، وليس معهم دليل على أنه يؤاخذ إذا لم يكن هناك قول أو عمل.

والقاضي بناها على أصله في «الإيمان» الذي اتبع فيه جهماً والصالحي، وهو المشهور عن أبي الحسن الأشعري، وهو أن الإيمان مجرد تصديق القلب، ولو كذب بلسانه، وسب الله ورسوله بلسانه، وأن سب الله ورسوله إنما هو كفر في الظاهر، وأن كلما كان كفراً في نفس الأمر فإنه

---

(١) سبق تخريجه ص ١٤٩.

يمتنع أن يكون معه شيء من تصديق القلب، وهذا أصل فاسد في الشرع والعقل، حتى إن الأئمة: كوكيع بن الجراح[1] وأحمد بن حنبل وأبـي عبيدة وغيرهم كفروا من قال في «الإيمان» بهذا القول، بخلاف المرجئة من الفقهاء الذين يقولون: هو تصديق القلب واللسان، فإن هؤلاء لم يكفرهم أحد من الأئمة، وإنما بدعوهم.

وقد بسط الكلام في «الإيمان» وما يتعلق بذلك في غير هذا الموضع، وبين أن من الناس من يعتقد وجود الأشيـاء بدون لـوازمها. فيقـدر ما لا وجود له.

[أوجه خطأ جهم في الإيمان:]

وأصل جهم في «الإيمان» تضمن غلطاً من وجوه:

(أ) (منها) ظنه أنه مجرد تصديق القلب ومعرفته بدون أعمال القلب: كحب الله وخشيته ونحو ذلك.

(ب) و(منها) ظنه ثبوت إيمان قائم في القلب بدون شيء من الأقوال والأعمال.

(ج) و(منها) ظنه أن من حكم الشرع بكفره وخلوده في النار، فإنه يمتنع أن يكون في قلبه شيء من التصديق، وجزموا بأن إبليس وفرعون واليهود ونحوهم لم يكن في قلوبهم شيء من ذلك. وهذا كلامهم في الإرادة والكراهة والحب والبغض ونحو ذلك؛ فإن هذه الأمور إذا كانت هماً وحديث نفس فإنه معفو عنها، وإذا صارت إرادة جازمة وحباً وبغضاً لزم

---

(١) هو وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي، أبو سفيان الكوفي، ثقة حافظ عابد من كبار الطبقة التاسعة، مات في آخر سنة ١٩٧. انظر ترجمته في (تقريب التهذيب، ص ٣٦٩؛ والأعلام ج ٨، ص ١١٧).

وجود الفعل ووقوعه، وحينئذ فليس لأحد [أن] يقدر وجودها مجردة. ثم يقول: ليس فيها إثم، وبهذا يظهر الجواب عن حجة السائل.

[محبة الله ورسوله واقترانها بالإرادة:]

فإن الأمة مجمعة على أن الله يثيب على محبته ومحبة رسوله، والحب فيه والبغض فيه، ويعاقب على بغضه وبغض رسوله، وبغض أوليائه، وعلى محبة الأنداد من دونه، وما يدخل في هذه المحبة من الإرادات والعزوم، فإن المحبة سواء كانت نوعاً من الإرادة أو نوعاً آخر مستلزماً للإرادة، فلا بد معها من إرادة وعزم، فلا يقال: هذا من حديث النفس المعفو عنه، بل كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي: «أوثق عرى الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله»[1] وفي الصحيحين عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[2]، وفي صحيح البخاري عن عبدالله بن هشام قال: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال عمر: لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء، إلا من نفسي. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا، والذي نفسي بيده! حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال عمر: فإنك الآن أحب إلي من نفسي. فقال النبي صلى الله عليه وسلم الآن يا عمر!»[3]، بل قد قال تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن

---

(١) رواه الطبراني في الكبير، ج ١١ ص ٢١٥، وفيه زيادة، ولم أجده في الترمذي.
(٢) سبق تخريجه ص ٨١.
(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم، ج ١١ ص ٥٢٣.

ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[1].

فانظر إلى هذا الوعيد الشديد الذي قد توعد الله به من كان أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فعلم أنه يجب أن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب إلى المؤمن من الأهل والمال والمساكن والمتاجر والأصحاب والأخوان، وإلا لم يكن مؤمناً حقاً ومثل هذا ما في الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع في الكفر، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»[2]، وهذا لفظ البخاري، فأخبر أنه لا يجد أحد حلاوة الإيمان إلا بهذه المحبات الثلاث.

(أحدها): أن يكون الله ورسوله أحب إليه من سواهما، وهذا من أصول الإيمان المفروضة التي لا يكون العبد مؤمناً بدونها.

(الثاني): أن يحب العبد لا يحبه إلا لله وهذا من لوازم الأول.

و(الثالث): أن يكون إلقاؤه في النار أحب إليه من الرجوع إلى الكفر.

وكذلك التائب من الذنوب من أقوى علامات صدقه في التوبة هذه الخصال، محبة الله ورسوله ومحبة المؤمنين فيه، وإن كانت متعلقة بالأعيان ليست من أفعالنا كالإرادة المتعلقة بأفعالنا، فهي مستلزمة لذلك، فإن من كان الله ورسوله أحب إليه من نفسه وأهله وماله لا بد أن يريد من العمل

---

(١) الآية ٢٤ من سورة التوبة.

(٢) سبق تخريجه ص ٧٨.

ما تقتضيه هذه المحبة، مثل إرادته نصر الله ورسوله ودينه والتقريب إلى الله ورسوله، ومثل بغضه لمن يعادي الله ورسوله.

ومن هذا الباب ما استفاض عنه صلى الله عليه وسلم في الصحاح من حديث ابن مسعود وأبي موسى وأنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المرء مع من أحب» وفي رواية «الرجل يحب القوم ولما يلحق لهم»، أي ولما يعمل بأعمالهم، فقال: «المرء مع من أحب»(١)، قال أنس: فما فرح المسلمون بشيء بعد الإسلام فرحهم بهذا الحديث فأنا أحب النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر، وأرجو أن يجعلني الله معهم، وإن لم أعمل عملهم. وهذا الحديث حق، فإن كون المحب مع المحبوب أمر فطري لا يكون غير ذلك، وكونه معه هو على محبته إياه، فإن كانت المحبة متوسطة أو قريباً من ذلك كان معه بحسب ذلك، وإن كانت المحبة كاملة كان معه كذلك، والمحبة الكاملة تجب معها الموافقة للمحبوب في محابه، إذا كان المحب قادراً عليها، فحيث تخلفت الموافقة مع القدرة يكون قد نقص من المحبة بقدر ذلك، وإن كانت موجودة.

وحب الشيء وإرادته يستلزم بغض ضده وكراهته، مع العلم بالتضاد، ولهذا قال تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾(٢)، والموادة من أعمال القلوب.

فإن الإيمان بالله يستلزم مودته ومودة رسوله، وذلك يناقض موادة من حاد الله ورسوله، وما ناقض الإيمان فإنه يستلزم العزم والعقاب، لأجل

---

(١) رواه: البخاري في كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله، ج ١٠ ص ٥٥٧؛ ومسلم في كتاب البر، باب المرء مع من أحب، ج ٤ ص ٢٠٣٤؛ والترمذي في أبواب الدعوات، ج ٥ ص ٢٠٥/٢٠٦؛ والدارمي في الرقائق، باب المرء مع من أحب، ج ٢ ص ٣٢١/٣٢٢؛ وأحمد في مسنده، ج ٣ ص ١١٠.

(٢) الآية ٢٢ من سورة المجادلة.

عدم الإيمان. فإن ما ناقض الإيمان كالشك والإعـراض وردة القلب، وبغض الله ورسوله يستلزم الذم والعقاب لكونه تضمن ترك المأمور مما أمر الله به رسوله، فاستحق تاركه الذم والعقاب وأعظم الواجبات إيمان القلب، فما ناقضه استلزم الذم والعقاب لتركه هذا الواجب؛ بخلاف ما استحق الذم لكونه منهياً عنه كالفواحش والظلم، فإن هذا هو الذي يتكلم في الهم به وقصده، إذا كان هذا لا يناقض أصل الإيمان، وإن كان يناقض كماله، بل نفس فعل الطاعات يتضمن ترك المعاصي، ونفس ترك المعاصي يتضمن فعل الطاعات، ولهذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فالصلاة تضمنت شيئين:

(أحدهما): نهيها عن الذنوب.

و (الثاني): تضمنها ذكر الله، وهو أكبر الأمرين، فما فيها من ذكر الله أكبر من كونها ناهية عن الفحشاء والمنكر، و [لبسط] هذا موضع آخر..

و (المقصود هنا) أن المحبة التامة لله ورسوله تستلزم وجود محبوباته، ولهذا جاء في الحديث الذي في الترمذي «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»[1]، فإنه إذا كان حبه لله، وبغضه لله، وهما عمل قلبه، وعطاؤه لله، ومنعه لله، وهما عمل بدنه، دل على كمال محبته لله، و[دل] ذلك على كمال الإيمان، وذلك أن كمال الإيمان أن يكون الدين كله لله، وذلك عبادة الله وحده لا شريك له، والعبادة تتضمن كمال الحب، وكمال الذل، والحب مبدأ جميع الحركات الإرادية، ولا بد لكل حي من حب وبغض، فإذا كانت محبته لمن يحبه الله، وبغضه لمن يبغضه الله، دل ذلك على صحة الإيمان في قلبه، لكن قد يقوى ذلك وقد يضعف، بما يعارضه من شهوات النفس وأهوائها، الذي يظهر

(١) سبق تخريجه ص ٤٦.

في بذل المال الذي هو مادة النفس، فإذا كان حبه لله، وعطاؤه لله، ومنعه لله. دل على كمال الإيمان باطناً وظاهراً.

وأصل الشرك في المشركين ــ الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ــ إنما هو اتخاذ أنداد يحبونهم كحب الله، كما قال تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله﴾[1]، ومن كان حبه لله وبغضه لله، لا يحب إلا الله، ولا يبغض إلا الله، ولا يعطي إلا الله ولا يمنع إلا الله، فهذه حال السابقين من أولياء الله كما روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يقول الله من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن: يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه»[2]، فهؤلاء الذين أحبوا الله محبة كاملة تقربوا بما يحبه من النوافل، بعد تقربهم بما يحبه من الفرائض، أحبهم الله محبة كاملة حتى بلغوا ما بلغوه، وصار أحدهم يدرك بالله، ويتحرك بالله، بحيث أن الله يجيب مسألته، ويعيذه مما استعاذ منه.

وقد ذم في كتابه من أحب أنداداً من دونه، قال تعالى: ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾[3]، وذم من اتخذ إلهه هواه وهو أن يتأله ما يهواه ويحبه، وهذا قد يكون فعل القلب فقط. وقد مدح تعالى وذم في كتابه في غير موضع على المحبة والإرادة والبغض والسخط والفرح والغم، ونحو

---

(١) الآية ١٦٥ من سورة البقرة.

(٢) سبق تخريجه ص ١١٥.

(٣) الآية ٩٣ من سورة البقرة.

ذلك من أفعال القلوب كقوله: ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾[1]، وقوله: ﴿كلا بل تحبون العاجلة، وتذرون الآخرة﴾[2]، وقوله: ﴿يحبون العاجلة، ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً﴾[3].

وقوله: ﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾[4]، وقوله: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾[5]، وقوله: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر، يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا﴾[6]، وقوله: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم﴾[7]، وقوله: ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾[8]، وقوله: ﴿وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾[9].

وقوله: ﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، ولا ينفقون إلا وهم كارهون﴾[10]، وقوله: ﴿ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط

---

(١) الآية ١٦٥ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٢٠ من سورة القيامة.
(٣) الآية ٢٧ من سورة الإنسان.
(٤) الآية ١٢٠ من سورة آل عمران.
(٥) الآية ٤٥ من سورة الزمر.
(٦) الآية ٧٢ من سورة الحج.
(٧) الآية ١٠٩ من سورة البقرة.
(٨) الآية ١٠٥ من سورة البقرة.
(٩) الآية ٧ من سورة الأنفال.
(١٠) الآية ٥٤ من سورة التوبة.

أعمالهم﴾[1]، وقوله: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً﴾[2] الآية، وقوله: ﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾[3]، وقوله: ﴿قل: بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾[4].

وقال: ﴿إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾[5]، وقال: ﴿ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق، وبما كنتم تمرحون﴾[6]، وقال: ﴿إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾[7]، وقال: ﴿وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها﴾[8]، وقال: ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني، إنه لفرح فخور، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات﴾[9]، وقال: ﴿وتحبون المال حباً جماً﴾[10]، وقال: ﴿إن الإنسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد، وإنه لحب الخير لشديد﴾[11]، وقال: ﴿ولا تيأسوا من روح الله، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾[12]، وقال: ﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾[13].

---

(١) الآية ٩ من سورة محمد.
(٢) الآية ١٢٤ من سورة التوبة.
(٣) الآية ٣٦ من سورة الرعد.
(٤) الآية ٥٨ من سورة يونس.
(٥) الآية ٧٦ من سورة القصص.
(٦) الآية ٧٥ من سورة غافر.
(٧) الآية ١٨ من سورة لقمان.
(٨) الآية ٤٨ من سورة الشورى.
(٩) الآيتان ٩ ــ ١٠ من سورة هود.
(١٠) الآية ٢٠ من سورة الفجر.
(١١) الآيات ٦ ــ ٨ من سورة العاديات.
(١٢) الآية ٨٧ من سورة يوسف.
(١٣) الآية ٥٦ من سورة الحجر.

[أعمال القلب:]

وقال: ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾[1]، وقال: ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً﴾[2]، وقال: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾[3]، وقال: ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾[4]، وقال: ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾[5]، وقال: ﴿لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم﴾[6]، وقال: ﴿إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم﴾[7]، وقال: ﴿إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور﴾[8]، وقال: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾[9]، وقال: ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾[10]، وقال: ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾[11]، وقال: ﴿أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم﴾[12]، وقال: ﴿قد جاءتكم موعظة من

---

(١) الآية ٢٣ من سورة فصلت.
(٢) الآية ١٢ من سورة الفتح.
(٣) الآية ٥٤ من سورة النساء.
(٤) الآية ٥ من سورة الفلق.
(٥) الآية ٩ من سورة الحشر.
(٦) الآيتان ١١٨ ـ ١١٩ من سورة آل عمران.
(٧) الآية ٣٧ من سورة محمد.
(٨) الآيتان ٩ ـ ١٠ من سورة العاديات.
(٩) الآية ١٠ من سورة البقرة.
(١٠) الآية ٣٢ من سورة الأحزاب.
(١١) الآية ١٢ من سورة الأحزاب.
(١٢) الآية ٤١ من سورة المائدة.

ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾[1].

ومثل هذا كثير في كتاب الله وسنة رسوله واتفاق المؤمنين يحمد ويذم على ما شاء الله من مساعي القلوب وأعمالها: مثل قوله في الحديث الصحيح المتفق عليه: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا»[2]، وقوله: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه»[3]، وقوله: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[4]، وقوله: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر»[5]، و«لا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان»[6]، وقوله: «لا تسموا العنب الكرم وإنما الكرم قلب المؤمن»[7]، وأمثال هذا كثير.

---

(١) الآية ٥٧ من سورة يونس.

(٢) الحديث رواه: البخاري في كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، ج ١٠ ص ٤٨١؛ ومسلم في كتاب البر، باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر، ج ٤ ص ١٩٨٣؛ والترمذي في أبواب البر، باب ما جاء في الحسد، ج ٣ ص ٢٢١؛ ومالك في كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في المهاجرة، ج ٢ ص ٩٠٧؛ وأحمد في مسنده، ج ٢ ص ٢٨٧.

(٣) رواه: البخاري في كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ج ١ ص ٥٧؛ ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير ورواه غيرهما.

(٤) رواه: البخاري في كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ج ١٠ ص ٤٣٨؛ ومسلم في كتاب البر، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ج ٤ ص ١٩٩٩/ ٢٠٠٠.

(٥) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر، ج ١ ص ٩٣؛ والترمذي في كتاب البر، باب ما جاء في البر، ج ٣ ص ٢٤٤.

(٦) سبق تخريجه ص ٧١.

(٧) رواه: البخاري في الأدب، باب قول النبي «إنما الكرم قلب المؤمن» ج ١٠ ص ٥٦٦؛ ومسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب كراهية تسمية العنب كرماً، ج ٤ ص ١٧٦٣ وغيرهما.

بل قول القلب وعمله هو الأصل: مثل تصديقه وتكذيبه وحبه وبغضه، من ذلك ما يحصل به مدح وذم وثواب وعقاب بدون فعل الجوارح الظاهرة، ومنه ما لا يقترن به ذلك إلا مع الفعل بالجوارح الظاهرة إذا كانت مقدورة، وأما ما ترك فيه فعل الجوارح الظاهرة للعجز عنه فهذا حكم صاحبه حكم الفاعل، فأقوال القلب وأفعاله ثلاثة أقسام.

[أقسام أعمال القلب:]

(أحدها): ما هو حسنة وسيئة بنفسه.

و (ثانيها): ما ليس سيئة بنفسه حتى يفعل، وهو السيئة المقدورة كما تقدم.

و (ثالثها): ما هو مع العجز كالحسنة والسيئة المفعولة، وليس هو مع القدرة كالحسنة والسيئة المفعولة، كما تقدم.

«فالقسم الأول»: هو ما يتعلق بأصول الإيمان من التصديق والتكذيب، والحب والبغض، وتوابع ذلك، فإذن هذه الأمور يحصل فيها الثواب والعقاب، وعلو الدرجات، وأسفل الدركات، بما يكون في القلوب من هذه الأمور، وإن لم يظهر على الجوارح، بل المنافقون يظهرون بجوارحهم الأقوال والأعمال الصالحة، وإنما عقابهم وكونهم في الدرك الأسفل من النار على ما في قلوبهم من الأمراض، وإن كان ذلك قد يقترن به أحياناً بغض القول والفعل، لكن ليست العقوبة مقصورة على ذلك البغض اليسير، وإنما ذلك البغض دلالة كما قال تعالى: ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم، ولتعرفنهم في لحن القول﴾[1]، فأخبر أنهم لا بد أن يعرفوا في لحن القول.

---

(١) الآية ٣٠ من سورة محمد.

وأما «القسم الثاني» و«الثالث» فمظنة الأفعال التي لا تنافي أصول الإيمان، مثل المعاصي الطبعية: مثل الزنا، والسرقة، وشرب الخمر. كما ثبت في الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من مات يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، دخل الجنة. وإن زنا وإن سرق. وإن شرب الخمر»[1] وكما شهد النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح للرجل الذي كان يكثر شرب الخمر، وكان يجلده كلما جيء به فلعنه رجل، فقال: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»[2]، وفي رواية قال بعضهم: أخزاه الله ما أكثر ما يؤتى به في شرب الخمر. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تكونوا أعواناً للشيطان على أخيكم»[3] وهذا في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة.

[حديث النفس والوَسوسة:]

ولهذا قال: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تكلم به أو تعمل به»[4] والعفو عن حديث النفس إنما وقع لأمة محمد المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. فعلم أن هذا العفو هو فيما يكون من الأمور التي لا تقدح في الإيمان، فأما ما نافى الإيمان فذلك لا يتناوله لفظ الحديث؛ لأنه إذا نافى الإيمان لم يكن صاحبه من أمة محمد في الحقيقة، ويكون بمنزلة المنافقين، فلا يجب أن يعفى عما في نفسه من كلامه أو عمله، وهذا فرق بين يدل عليه الحديث وبه تأتلف الأدلة الشرعية. وهذا كما عفا

---

(١) الحديث رواه: البخاري في كتاب الجنائز، باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله، ج ٣ ص ١١٠؛ ومسلم في كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ج ١ ص ٩٤/٩٥.

(٢) سبق تخريجه، ص ٧١.

(٣) رواه البخاري في كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة، ج ١٢ ص ٧٥.

(٤) سبق تخريجه ص ١٤٩.

الله لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان. كما دل عليه الكتاب والسنة، فمن صح إيمانه عفي له عن الخطأ والنسيان وحديث النفس، كما يخرجون من النار، بخلاف من ليس معه الإيمان فإن هذا لم تدل النصوص على ترك مؤاخذته بما في نفسه وخطئه ونسيانه، ولهذا جاء: «نية المؤمن خير من عمله»[1] هذا الأثر رواه أبو الشيخ الأصبهاني في «كتاب الأمثال» من مراسيل ثابت البناني. وقد ذكره ابن القيم[2] في النية من طرق عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم ضعفها. فالله أعلم.

فإن النية يثاب عليها المؤمن بمجردها، وتجري مجرى العمل إذا لم يمنع من العمل بها إلا العجز، ويمكنه ذلك في عامة أفعال الخير، وأما عمل البدن فهو مقيد بالقدرة، وذلك لا يكون إلا قليلاً؛ ولهذا قال بعض السلف: قوة المؤمن في قلبه، وضعفه في بدنه، وقوة المنافق في بدنه وضعفه في قلبه.

وقد دل على هذا الأصل قوله تعالى: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله، فيغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء﴾[3] الآية. وهذه الآية وإن كان قد قال طائف من السلف إنها منسوخة كما روى البخاري في صحيحه عن مروان الأصغر عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ـ وهو ابن عمر ـ أنها نسخت[4]، فالنسخ في لسان

---

(١) رواه البيهقي في الشعب عن أنس، ورمز له السيوطي بإشارة الضعف. انظر الجامع الصغير، ج ٢ ص ١٨٨.

(٢) لعل كلمة ابن القيم تصحيف من الناسخ فليحرر. وذلك أن ابن القيم ذكر هذه الرسالة من مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى «من هامش مجموع الفتاوى، ج ١٠ ص ٧٦١».

(٣) الآية ٢٨٤ من سورة البقرة.

(٤) رواه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير، باب «وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله» ج ٨ ص ٢٠٥.

السلف أعم مما هو في لسان المتأخرين، يريدون به رفع الدلالة مطلقاً، وإن كان تخصيصاً للعام أو تقييداً للمطلق، وغير ذلك، كما هو معروف في عرفهم، وقد أنكر آخرون نسخها لعدم دليل ذلك، وزعم قوم: أن ذلك خبر، والخبر لا ينسخ. ورد آخرون بأن هذا خبر عن حكم شرعي. كالخبر الذي بمعنى الأمر والنهي.

والقائلون بنسخها يجعلون الناسخ لها الآية التي بعدها وهي قوله: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾[١] كما روى مسلم في صحيحه من حديث أنس في هذه الآية[٢] فيكون المرفوع عنهم ما فسرت به الأحاديث، وهو ما هموا به وحدثوا به أنفسهم من الأمور المقدورة، ما لم يتكلموا به أو يعملوا به، ورفع عنهم الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه. كما روى ابن ماجه وغيره بإسناد حسن: «إن الله تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[٣].

و «حقيقة الأمر» أن قوله سبحانه: ﴿إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه﴾[٤] لم يدل على المؤاخذة بذلك؛ بل دل على المحاسبة به ولا يلزم من كونه يحاسب أن يعاقب؛ ولهذا قال: ﴿فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾[٥] لا يستلزم أنه قد يغفر ويعذب بلا سبب ولا ترتيب، ولا أنه يغفر كل شيء، أو يعذب على كل شيء، مع العلم بأنه لا يعذب المؤمنين، وأنه لا يغفر أن يشرك به إلا مع التوبة. ونحو ذلك.

---

(١) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة.

(٢) روى ذلك مسلم في كتاب الايمان، باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق، ج ١ ص ١١٥.

(٣) رواه ابن ماجه في كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، ج ١ ص ٦٥٩، وفي الزوائد إسناده ضعيف لاتفاقهم على ضعف أبي بكر الهذلي.

٤) الآية ٢٨٤ من سورة البقرة.

لآية ٢٨٤ من سورة البقرة.

والأصل أن يفرق بين ما كان مجامعاً لأصل الإيمان وما كان منافياً له، ويفرق أيضاً بين ما كان مقدوراً عليه فلم يفعل، وبين ما لم يترك إلا للعجز عنه، فهذان الفرقان هما فصل في هذه المواضيع المشتبهة.

وقد ظهر بهذا التفصيل أن أصل النزاع في «المسألة» إنما وقع لكونهم رأوا عزماً جازماً لا يقترن به فعل قط، وهذا لا يكون إلا إذا كان الفعل مقارناً للعزم، وإن كان العجز مقارناً للإرادة امتنع وجود المراد، لكن لا تكون تلك إرادة جازمة، فإن الإرادة الجازمة لما هو عاجز عنه ممتنعة أيضاً، فمع الإرادة الجازمة يوجد ما يقدر عليه من مقدمات الفعل ولوازمه، وإن لم يوجد الفعل نفسه.

والإنسان يجد من نفسه: أن مع قدرته على الفعل يقوى طلبه والطمع فيه وإرادته، ومع العجز عنه يضعف ذلك الطمع، وهو لا يعجز عما يقوله ويفعله [على] السواء، ولا عما يظهر على صفحات وجهه، وفلتات لسانه، مثل بسط الوجه وتعبسه، وإقباله على الشيء والإعراض عنه، وهذه وما يشبهها من أعمال الجوارح التي يترتب عليها الذم والعقاب، كما يترتب عليها الحمد والثواب.

وبعض الناس يقدر عزماً جازماً لا يقترن به فعل قط، وهذا لا يكون إلا لعجز يحدث بعد ذلك من موت أو غيره. فسموا التصميم على الفعل في المستقبل عزماً جازماً، ولا نزاع في إطلاق الألفاظ؛ فإن من الناس من يفرق بين العزم والقصد فيقول: ما قارن الفعل فهو قصد، وما كان قبله فهو عزم. ومنهم من يجعل الجميع سواء، وقد تنازعوا هل تسمى إرادة الله لما يفعله في المستقبل [عزماً]، وهو نزاع لفظي؛ لكن ما عزم الإنسان عليه أن يفعله في المستقبل فلا بد حين فعله من تجدد إرادة، غير العزم المتقدم، وهي الإرادة المستلزمة لوجود الفعل مع القدرة، وتنازعوا أيضاً هل يجب وجود الفعل مع القدرة والداعي؟ وقد ذكروا أيضاً في ذلك قولان:

والأظهر أن القدرة مع الداعي التام تستلزم وجود المقدور والإرادة مع القدرة تستلزم وجود المراد.

والمتنازعون في هذه أراد أحدهم إثبات العقاب مطلقاً على كل عزم على فعل مستقبل، وإن لم يقترن به فعل. وأراد الآخر رفع العقاب مطلقاً عن كل ما في النفس من الإرادات الجازمة ونحوها، مع ظن الاثنين أن ذلك الواحد لم يظهر بقول ولا عمل. وكل من هذين انحراف عن الوسط.

فإذا عرف أن الإرادة الجازمة لا يتخلف عنها الفعل مع القدرة إلا لعجز يجري صاحبها مجرى الفاعل التام في الثواب والعقاب. وأما إذا تخلف عنها ما يقدر عليها فذلك المتخلف لا يكون مراداً إرادة جازمة؛ بل هو الهم الذي وقع العفو عنه. وبه ائتلفت النصوص والأصول.

ثم هنا «مسائل كثيرة» فيما يجتمع في القلب من الإرادات المتعارضة كالاعتقادات المتعارضة، وإرادة الشيء وضده؛ مثل شهوة النفس للمعصية وبغض القلب لها. ومثل حديث النفس الذي يتضمن الكفر إذا قارنه بعض ذلك والتعوذ منه، كما شكا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فقالوا: «إن أحدنا يجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة[1]، أو يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به، فقال: أو قد وجدتموه؟! فقالوا: نعم. قال: ذلك صريح الإيمان». رواه مسلم من حديث ابن مسعود، وأبي هريرة. وفيه: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة»[2].

---

(١) الحُمَمُ: الرماد والفحم وكل ما احترق من النار، الواحدة (حُمَمَة) [مختار الصحاح، ص ١٥٧].

(٢) رواه: مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، ولفظه «جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال «وقد وجدتموه» قالوا: نعم. قال: «ذاك صريح الإيمان» ج ١ ص ١١٩.

وحين كتبت هذا الجواب لم يكن عندي من الكتب ما يستعان به على الجواب؛ فإن له موارد واسعة. فهنا لما اقترن بالوسواس هذا البغض وهذه الكراهة كان هو صريح الإيمان، وهو خالصه ومحضه؛ لأن المنافق والكافر لا يجد هذا البغض، وهذه الكراهة مع الوسوسة بذلك؛ بل إن كان في الكفر البسيط، وهو الإعراض عما جاء به الرسول، وترك الإيمان به ـ وإن لم يعتقد تكذيبه ـ فهذا قد لا يوسوس له الشيطان بذلك، إذ الوسوسة بالمعارض المنافي للإيمان إنما يحتاج إليها عند وجود مقتضيه، فإذا لم يكن معه ما يقتضي الإيمان لم يحتج إلى معارض يدفعه؛ وإن كان في الكفر المركب وهو التكذيب فالكفر فوق الوسوسة، وليس معه إيمان يكره به ذلك.

ولهذا لما كانت هذه الوسوسة عارضة لعامة المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله﴾[1] الآيات. فضرب الله المثل لما ينزله من الإيمان والقرآن بالماء الذي ينزل في أودية الأرض، وجعل القلوب كالأودية: منها الكبير، ومنها الصغير كما في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً: فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها طائفة أمسكت الماء فسقى الناس وشربوا، وكانت منها طائفة إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به من الهدى والعلم. ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[2] فهذا أحد المثلين.

---

(١) الآية ١٧ من سورة الرعد.

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب العلم، باب فضل من عَلِم وعَلَّم، ج ١ ص ١٧٥؛ ومسلم في كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم، ج ٤ ص ١٧٨٧/١٧٨٨؛ وأحمد في مسنده، ج ٤ ص ٣٩٩.

و «المثل الآخر» ما يوقد عليه لطلب الحلية والمتاع: من معادن الذهب والفضة والحديد ونحوه، وأخبر أن السيل يحتمل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار زبد مثله، ثم قال: ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد﴾[1] الرابـي على الماء وعلى الموقد عليه فهو نظير ما يقع في قلوب المؤمنين من الشك والشبهات في العقائد والإرادات الفاسدة كما شكاه الصحابة إلى النبـي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿فيذهب جفاء﴾[2] يجفوه القلب فيرميه ويقذفه كما يقذف الماء الزبد ويجفوه ﴿وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾[3] وهو مثل ما ثبت في القلوب من اليقين والإيمان. كما قال تعالى: ﴿ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة﴾[4] الآية، إلى قوله: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضل الله الظالمين، ويفعل الله ما يشاء﴾[5].

فكل ما وقع في قلب المؤمن من خواطر الكفر والنفاق فكرهه وألقاه ازداد إيماناً ويقيناً، كما أن كل من حدثته نفسه بذنب فكرهه ونفاه عن نفسه وتركه لله ازداد صلاحاً وبراً وتقوى.

وأما المنافق فإذا وقعت له الأهواء والآراء المتعلقة بالنفاق لم يكرهها ولم ينفها، فإنه قد وجدت منه سيئة الكفر من غير حسنة إيمانية تدفعها أو تنفيها، والقلوب يعرض لها الإيمان والنفاق، فتارة يغلب هذا، وتارة يغلب هذا.

---

(١) الآية ١٧ من سورة الرعد.
(٢) الآية السابقة.
(٣) الآية السابقة.
(٤) الآية ٢٤ من سورة إبراهيم.
(٥) الآية ٢٧ من سورة إبراهيم.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست أو حدثت به أنفسها»[1] كما في بعض ألفاظه في الصحيح، هو مقيد بالتجاوز للمؤمنين، دون من كان مسلماً في الظاهر، وهو منافق في الباطن وهم كثيرون في المتظاهرين بالإسلام قديماً وحديثاً. وهم في هذه الأزمان المتأخرة في بعض الأماكن أكثر منهم في حال ظهور الإيمان في أول الأمر، فمن أظهر الإيمان وكان صادقاً مجتنباً ما يضاده أو يضعفه يتجاوز له عما يمكنه التكلم به والعمل به؛ دون ما ليس كذلك. كما دل عليه لفظ الحديث.

فالقسمان اللذان بينا أن العبد يثاب فيهما ويعاقب على أعمال القلوب خارجة من هذا الحديث، وكذلك قوله: «من هم بحسنة» و «من هم بسيئة»[2] إنما هو في المؤمن الذي يهم بسيئة أو حسنة يمكنه فعلها فربما فعلها وربما تركها؛ لأنه أخبر أن الحسنة تضاعف بسبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وهذا إنما هو لمن يفعل الحسنات لله. كما قال تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾[3] و ﴿ابتغاء مرضاة الله﴾[4] و ﴿ابتغاء وجه ربه﴾[5] وهذا للمؤمنين؛ فإن الكافر وإن كان الله يطعمه بحسناته في الدنيا، وقد يخفف عنه بها في الآخرة؛ كما خفف عن أبي طالب لإحسانه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وبشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسياً في الأيمان، ج ١١ ص ٥٤٩.
(٢) سبق تخريجه ص ١٤٩.
(٣) الآية ٢٦١ من سورة البقرة.
(٤) الآية ٢٦٥ من سورة البقرة.
(٥) الآية ٢٠ من سورة الليل.

فلم يوعد لكافر على حسناته بهذا التضعيف، وقد جاء ذلك مقيداً في حديث آخر: أنه في المسلم الذي هو حسن الإسلام[1].

والله سبحانه أعلم. والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

* * *

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب إذا همّ العبد بحسنة كتبت وإذا همّ بسيئة لم تكتب، ج ١ ص ١١٨ ولفظه: «إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وكل سيئة يعملها تكتب بمثلها حتى يلقى الله».

فهارس الكتاب

* فهرس الآيات القرآنية الكريمة.
* فهرس الأحاديث الشريفة.
* فهرس المصادر والمراجع.
* فهـرس المـوضوعـات.

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

* * *

فهرس الأحاديث الشريفة

الحديث	رقم الصفحة

الحديث	رقم الصفحة

الحديث	رقم الصفحة

« م »

الحديث	رقم الصفحة

* * *

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان. تحقيق شعب الأرناؤوط.
- الإصابة في معرفة الصحابة، طبعة دار الكتاب العربي.
- الأعلام، للزركلي. دار العلم للملايين ـ بيروت.
- الترغيب والترهيب، للمنذري. طبعة دار إحياء التراث العربي بيروت.
- تفسير ابن كثير. طبعة دار الفكر.
- تقريب التهذيب، لابن حجر. طبعة دار نشر الكتب الإسلامية كوجرانوالة ـ باكستان.
- تلخيص المستدرك، للذهبي. بهامش المستدرك، طبعة دار الفكر.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري. طبعة دار الفكر.
- الجامع الصغير، للسيوطي. طبعة دار الكتب العلمية.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للأصبهاني طبعة دار الكتاب العربي.
- الرسالة القشيرية، للقشيري. طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت.
- الروض الداني إلى المعجم الصغير، للطبراني. طبعة المكتب الإسلامي.
- سنن ابن ماجة. تحقيق فؤاد عبدالباقي طبعة المكتبة العلمية ـ بيروت.
- سنن أبي داود. تحقيق الدعاس وعادل السيد طبعة دار الحديث ـ بيروت.
- سنن الترمذي. تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف. طبعة دار الفكر ـ بيروت.
- سنن الدارقطني. طبعة دار المحاسن للطباعة ـ القاهرة.
- سنن الدارمي. طبعة دار الكتب العلمية.
- سنن النسائي. طبعة دار الكتب العلمية.
- صحيح البخاري بهامش الفتح. طبعة دار المعرفة.
- صحيح مسلم. تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي. طبعة دار الفكر.

ـ صفة الصفوة، لابن الجوزي. طبعة دار المعرفة.
ـ الضعفاء، للعقيلي. طبعة دار الكتب العلمية.
ـ طبقات ابن سعد. طبعة دار صادر.
ـ طبقات الحفاظ، للسيوطي. طبعة دار الكتب العلمية.
ـ العبر، للذهبي. طبعة دار الكتب العلمية.
ـ الفتح الرباني، للساعاتي. طبعة دار إحياء التراث العربي.
ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي. طبعة دار الفكر.
ـ لسان العرب، لابن منظور. طبعة دار صادر.
ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي. طبعة دار الكتاب العربي.
ـ مختار الصحاح، للرازي. طبعة دار الكتب العلمية.
ـ المستدرك، للحاكم. طبعة دار الفكر.
ـ المستطرف في كل فن مستظرف، للأبشيهي. طبعة دار القلم بيروت.
ـ المعجم الكبير، للطبراني. طبعة وزارة الأوقاف العراقية، تحقيق حمدي السلفي.
ـ المفضليات. تحقيق أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون.
ـ موارد الظمآن، للهيثمي. طبعة دار الكتب العلمية.
ـ الموطأ، للإمام مالك. تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي طبعة دار إحياء التراث العربي.
ـ وفيات الأعيان، لابن خلكان. تحقيق إحسان عباس طبعة دار الثقافة بيروت.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *